إِجَاباتٌ مُقْنِعَةٌ
عن
دِين الإِسلام

تَأليف:
أَحْمَدُ بن ناصر الطَّيَّار

- **اسم الكتاب:** إجاباتٌ مقنعةٌ عن دِينِ الإسلامِ.
- **تأليف:** أحمد بن ناصر الطَّيَّار.
- **مقاس الصفحة:** ١٧×٢٤.
- **نوع الطباعة:** ملون.
- **عدد الصفحات:** ١٦١.
- **أعمال فنية:** +967738979200

الطبعة الأولى

١٤٤٨هـ / ٢٠٢٦م

إجابات مقنعة

عن

دين الإسلام

تأليف:

أحمد بن ناصر الطَّيَّار

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب ليس له حقوقُ طبع، بل لكلّ أحدٍ قراءته وطباعته ونشره وتوزيعه، بشرط أن لا يكون الهدفُ الربحَ المادّي، بل الهدف الوحيد: طلب الأجر، ونفع المسلمين، وهداية الكافرين والمتحيرين والمشككين..

ومن حقّ أيّ جمعيّة أو مكتبٍ جاليةٍ أو معهد أن تنْسبه لها، ولا يُشترط ذكر اسمي ولا إذني، إذا اقْتَضت المصلحةُ الشرعيةُ ذلك.

ومن حقّ أيّ أحد نشْرُ ما فيه أو ترْجمته، دون الإشارة إلىٰ ذكر اسمي، إذا اقْتَضت المصلحةُ الشرعيةُ ذلك.

وإنّ الغاية من تأليف هذا الكتاب:

١- إزالةُ شُبَه أهل الحيرة والتّشْكيك والإلحاد، والإجابةُ عن أسْئِلتهم- إن كانوا يطلبون الحق-.

٢- تحصينُ الدعاةِ إلىٰ الله والمصلحين والمثقّفين بالأدلة العقلية؛ ليواجِهوا بها شبهاتِ وأسئلة أهل الشك والإلحاد والحيرة.

٣- زيادةُ قناعةِ ويقين عامةِ المسْلمين بدينهم وعقيدتهم، وحمايتُهم من الوقوعِ في أسباب الانتكاسة والردّة.

وإني علىٰ يقين جازمٍ أنّ من قرأ الكتاب بعقل مجرّد سالمٍ من الهوىٰ والكبر، ونفسٍ عازمة علىٰ قبول الحق: فسيخرج بعده بروحٍ مطْمئنّة موقنةٍ بصوابِ دينِ الإسلام، وصحةِ القرآن وأنه كلام الرحمن، وصدقِ النبيّ محمد صلىٰ الله عليه وسلم.

وسيجد انشراحًا تامًّا بإذن الله، وستزول تلك الوساوسُ الشّيطانية، والأفكارُ الخاطئة، الجاثمةُ علىٰ النفس فأثْقلتها وأتْعبتها..

طالبٌ مشاكسٌ عنده شبهاتٌ وشكوك

دخلت فصلاً في إحدىٰ المراحل الثانوية لِأُلْقي عليهم موعظةً نافعة، وقصةً هادفة، وما إنْ بدأت بالحديث، واسْترسلت بالكلام، حتىٰ قاطعني طالبٌ بشكل غريبٍ، فقال: يا أستاذ: قلت في مُحاضرتك السابقة، التي ألقيتها علينا: إنَّ الغرب لا يريد بالمسلمين الخير والازدهار!، وها نحن نراهم قد ساعدوا السوريين ووقفوا معهم!، فأنتم واهمون، فقلت: هل هذا سؤال؟ فقال: لا بل هي معلومة، أحببت أنْ أصحّح بها معلوماتك!!، فقلت: أشكرك علىٰ سؤالك وطرحك، وقد سمعت منك، أتسمح لي أن تسمع مني؟ قال: بالطبع، قلت: كم مضىٰ علىٰ الشعب السوريّ وهو يُطالب بحريَّته وكرامته وحقنِ دمِه؟ فضج الطلاب جميعـًا: ستتان!، فقلت: هل قدمت لهم تلك الدول من شيئًا ملموسًا ونراه؟ فسكت، فقلت: ألم تتدخل في دولةِ "مالي" مباشرةً وقتَّلت كثيرًا من الشعب المسلم لمجرد أنه اختار دين الإسلام، واختار مسلمًا يحكم بلده؟ قال: بلىٰ، فقلت: لِمَ لَمْ تتدخل هي والغرب في سوريا إنْ كانوا صادقين ومحبين لرغبة الشعوب؟

فلم ينطق بكلمة؟..

بعدها خرجت من الفصل متحيِّراً من طريقةِ سؤالِه وطرحِه، فسألت عنه معلّميه، فأجاب الجميع بأنه كثيراً ما يسأل أسئلةً مُشكِّكةً في الدين والعقيدة، وبعضهم قال إنه ملحد، والآخر بدأ بالسب والشتم!.

فسألتهم: هل ناقشه أحدٌ وحاوَرَه برفق؟ فأجابوا بـ"لا"، عدا الْمُرشد الطلابي، الذي كلّمه بكلامٍ عامٍّ.

وفي يوم الأحد ٢/ ٧/ ١٤٣٤هـ، أرسلت له طالبًا يستدعيه، فأبىٰ الحضور بحجة انشغاله بالحصص، فمكثت ساعةً ثم ذهبت إليه وطلبت منه الحضور، فكان مُتوتِّراً جدًّا، فبدأت أُحادثه ونحن في طريقنا لغرفتي، وأُضاحكه، فخفّ ما كان يجده، فدخلنا الغرفة، وقد أعددت له قهوةً وماءً، فأكرمته ومازحته، ثم بدأت أثني بما أعلمه منه من بشاشته أحيانـًا، وجَرَّأْتُه علىٰ إبداء ما يراه، وأنّ الجرأةَ في إبداءِ الرأي صفةٌ لا تكون إلا في الأقوياء.

ثم قلت له: أتسمح لي أنْ نتناقش مناقشةً أَخويَّةً، مبنيَّةً علىٰ حسن الظن والمودة، فأنا أكنُّ لك الحب والاحترام، فإن كنت لا توافق فلا أُلزمك، فقال: بل أنا علىٰ أتمِّ الاستعداد، وعلىٰ الرحب والسعة.

فقلت له: سنجعل نقاشنا عن الأشياء الأساسية الكليَّة، وما ينتج عنها من جزئيِّاتٍ نرجئها بعد ذلك، ثم بيَّنت له طريقتي في الحوار، وهي:

١- أنْ نُحكِّم العقل والمنطق.

٢- وأن نصدق في إظْهار ما اقْتَنَعْنا به.

فأنا أعاهدك أنني إذا اقتنعتُ بحجّتك أنْ أسلّم بها، وإنني أسعد باعتراضك أكثر من سعادتي بموافقتك، لأني لا أريد المجاملات، فإنك إنْ خادعتني أو جاملتني فلن تخدع أو تُجامل نفسك..

كان الباب مغلقًا، والجوالُ مقفلًا، وكانت الساعةُ العاشرةَ صباحًا تقريبًا.

قلت له: أتوافقني بأنَّ من يقرأ كتابًا لا بدّ أنْ يكون له هدفٌ من قراءته؟

قال: نعم.

قلت: فماذا تقرأ ولماذا؟

قال: أقرأ لفلان وفلان – لأشخاصٍ عندهم أفكارٌ منحرفةٌ –، وإنما أقرأُ لهم لأنظر إلىٰ آرائهم وأفكارهم، فقد يكون الصواب معهم، والصواب ليس حكرًا علينا.

فقلت: سبحان الله! عقلك الثمين، تملؤه بشيءٍ لم تتأكّد من جودتِه وأصالته، وتضع فيه ما ليس له؟ والعقل متىٰ وُضع فيه ما لا يتناسب معه أفسده وأتلفه، وسبَّب لصاحبه الأمراض النفسية، والمشكلات المميتة..

انظر إلىٰ سيارتك، فسترىٰ أنّ كلّ صندوقٍ فيها يُوضع فيه ما يُناسبه.. صندوقٌ يُوضع فيه الزيت، وصندوقٌ يُوضع فيه الماء، وصندوقٌ يُوضع فيه البنزين.

والله قد خلق العقل، وجعل صلاحَه في أن يُمْلأ بما يُناسبه، وهو القرآن والوحي المطهَّر، فإنْ ملأته بزبالات الأفكار: تعطَّل عن وظيفته، وكنت كمن مَلأ وعاء بنزين السيَّارة بالماء.

ثم سألته وقلت: خلال قراءتك واطِّلاعك: ما هي حجةُ من يعتقد أنَّ الصانع والموجد هو الطبيعة؟

فتلكأ في الجواب وقال: ليس لهم حجة، وإنما هي من أوهامٍ، والْمُوجِدُ هو الله.

وأردت أنْ أبدأ معه من الصفر، وأنْ نبدأ بالأصل، فإذا فرغنا منه انطلقنا إلىٰ

الفروع، وهذا هو الأصل الذي إذا تمكن من قلبه وعقله، وأيقن بوجود الله حق اليقين، وأنه هو الخالق الرازق: انحلَّ أكثر ما يجده من إشكالاتٍ وشكوك..

ومع أنه يُظهر لي تسليمه بوجود الله، وتفردّه بالملك والتدبير، إلا أني لا أعتقد صدْقه في ذلك، فمن شكّك في أصل الدين والرسالة والإيمان بالغيب، فهل سيُؤمن بربٍّ أنزل الدّين وأرسل الرّسل تأمُر الناس بطاعة الله، وتُخبرهم بأمور غيبيّة لا يقْدر العقل علىٰ استيعابِها؟

فقلت: لكن هم لهم وجهةُ نظرٍ فلْنسمعها منهم قبل الحكم عليهم.

هم يقولون: إنَّنا لا نُؤمن إلا بما نراه ونحس به، والطبيعة هي التي نراها ونُعايشها.

فنقول لهم: هل الطبيعة خالقةٌ أم مخلوقة؟

فإن قالوا: مخلوقة؟

فنقول لهم: فمن خلقها؟

فإن قالوا: بل خالقةٌ ومُوجدة.

فنقول لهم: هل هي حسيَّةٌ أم معنويَّة؟

فإنْ قالوا: حسية.

فنقول لهم: أين هي لا نُحسُّها ولا نراها، وأين مكانها وصفاتها؟

فإنْ قالوا: بل معنوية.

فنقول لهم: ألستم تقولون: لا نقرُّ ولا نُؤمن إلا بالمحسوس؟

ومع ذلك نقول لهم: هذه الطبيعة القادرة علىٰ الإيجاد والخلق ، وأتْقَنت صنعها أيَّما إتقان، هل تملك صفاتٍ نعرفها بها من خلالها؟

فإنْ قالوا: لا.

قلنا: إذاً هذا عَدَمَ، وليس في الوجود مثل ذلك.

فإن قالوا: بل لها صفات.

قلنا: إذاً في نهاية المطاف نقرُّ نحن وإياكم بمُوجدٍ عظيمٍ له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، لكنكم أنتم: سمَّيتم ذلك طبيعةً، وهذه الطبيعة لم تُقِمْ علىٰ الناس حجةً في وجودها من إرسالها للرسل الذين يُبينون للناس حقيقتها ووجودها، ولم تُنزل كتبًا تشرح لنا أهدافها وماهيَّتها.

وأما نحن: فإننا نُؤمن بربٍّ أرسل لنا الرسل وأنزل لنا الكتب، وأقام علينا الحجة، وبيَّن لنا المحجَّة، فأينا أحقُّ وأرجا بالنجاة؟.

وبعد هذا التقرير المفصل، الذي وافقني عليه أشدَّ الموافقة، قلت له: هذا الربُّ العظيم، الذي خلقنا، وخلق الكون كلَّه، هل يُمكن له أن يتركنا دون أن يبين لنا ما يريد؟ وماذا يجب علينا؟.

قال: لا، ولكن هذا يتعارض مع العقل، أليس هو الذي خلقنا، فما حاجته أنْ يُرسل إلينا رسلاً؟

فقلت له: أرأيت لو أنّ الدّول المصنّعة للطائرات قالت: سنُرسل لكم الطائرات.. ولكن لن نُرسل لكم خبراءَ ومعلّمين يشرحون لكم كيفية التعامل معها!!

فهل هذا منطق ومقبول؟

قال: لا.

قلت: فكذلك الله تعالىٰ- وله المثل الأعلىٰ- خلقنا وأوجدنا، وأرسل لنا الرسل معلّمين ومُرشدين، يعلّموننا كيف نتعامل مع ربنا ومع أنفسنا، وكيف نتعامل مع الكون الفسيح، وكيف نتعامل مع بعضنا..

أليس هذا هو المنطق الذي تُؤمن به، وقرَّرْنا أنا وإياك أنْ نرجع إليه؟

قال: بلىٰ، ولقد اقتنعت تماماً من كلامك، ولكنكم تقولون بأن الله تعالىٰ كلما أرسل رسولاً أتىٰ بشرعٍ جديد، ومحا الشرع السابق، فهذا يجعل السابق خطأً، وإلا لِمَ لَمْ يكتف الله برسولٍ واحد؟، وأنا أؤمن أننا وجميع الشعوب لا بدّ أنْ نعيش بصداقةٍ وأخوة، وما تقررونه هو السبب في الصراع والبغضاء.

فقلت له: لقد عودتني بلطفك وتواضعك وإنصافك أن تُصارحني بالاعتراض إذا لم تقتنع من شيء، وإذا اقتنعت منه وافقتني عليه دون مُرواغةٍ، فأنا مُعجبٌ بهذه الصفة الجميلةِ التي يندر وجودها عند كثير من الناس، ففرح بكلامي وقال: وأنا علىٰ ذلك.

قلت: أتذكر أوَّل جوَّالٍ نزل؟

قال: نعم.

قلت: هب أنَّ مَنْ صنعه قال لنا: سأكتفي بمن أرسلت لكم من الخبراء، وبالكتاب الذي يشرح طريقةَ التعامل معه، والجوَّالات التي سأصنعُها بعد ذلك،

سأُحيلكم علىٰ الخبراء السابقين، والكتاب الأول! مع أنها تتطوّر وتتغيّر في كلّ إصدار.. فهل هذا منطق؟

قال: لا.

قلت: صدقت، فإن فعلوها فهذه أنانيةٌ وقلّة عقل.

فكذلك الله تعالىٰ، قد أرسل لنا أول رسولٍ وهو ما يُناسب القوم الذين بُعث فيهم، فلما مرَّت السنون تغيّرت الأوضاع وتغيّر حال الناس، فناسب أن يُرسل لهم رسولاً يُناسبُ التغيّر الذي طرأ عليهم.

ما تقول في زواج الأخ من أخته؟

قال: لا يمكن.

قلت: أتعلم أنَّ أبناء آدم تزوجوا من أخواتهم؟ وذلك للضرورة، حيث لا يُمكن أن يتناسلوا إلا بهذه الطريقة، فهل من المنطق أنْ يستمر الوضع علىٰ ما هو عليه؟

قال: لا.

قلت: فلذلك أرسل الله رسلاً آخرين غيَّروا الأمور التي لا تُناسب زمانهم، وأبقوا علىٰ ما يتناسب ولا يتغيّر في كلِّ زمانٍ ومكان، وهو العقيدة والتوحيد والأصول، فهي لا تختلف من نبيٍّ إلىٰ آخر.

قال النبيّ صلىٰ الله عليه وسلم: «الأَنْبِيَاءُ أَوْلَاد عَلَّات، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ». متفق عليه (١)

---

(١) اخرجه البخاري (3284 ، 3285) ومسلم (٤٤٨٨، ٤٤٨٦).

وَأَوْلَاد الْعَلَّات: الْإِخْوَة مِنْ الْأَب وَأُمَّهَاتهمْ مُختلفة، فأَصْل دِينهمْ وَاحِد وَهُوَ التَّوْحِيد وَإِنْ اخْتَلَفَتْ فُرُوع الشَّرَائِع.

قلت: هل توافقني؟

قال: نعم.

فقلت له: انظر إلىٰ طرف الجدار!

فنظر إليه!

قلت: أترىٰ المسافة التي بين طرفيه؟ قال: نعم، قلت: أتعلم أننا قطعنا ثلثي المسافة في هذا الحوار والنقاش الجميل، وهذا يعني أننا متفقون علىٰ أهمّ مسائل الدين بالعقل والمنطق.. فكيف يُقال: بأنك تُخالف وتشكك وتعترض وأنت توافق علىٰ أغلب ما عندي، فضحك ضَحِكَ الْمُعْجَبِ الْفَرِحِ.

قلت: أتأذن أنْ أخرج قليلاً وأتركك تأخذ قسطًا من الراحة؟

قال: نعم.

فخرجت حينما رأيت عرقه يتصبَّب؛ لِمَا فيه من القلق والتوتر، وأعتقد جازمًا أن هذا بسبب الصراع الشديد في نفسه، فهو مقتنعٌ من أشياء يراها مُسلَّمات، وها هي تُنقَض واحدة واحدة.

فلمَّا رجعتُ إليه رأيت عليه علامات الراحة والهدوء.

فرحبت به أشد ترحيب، وأثنيت علىٰ صبْره وثقافتِه وطلبِه للحقّ.

فقلت له: لقد قطعنا ثلثي الطريق.. فبقي القليل..

ألسنا قد اتفقنا – من جهة العقل والمنطق – علىٰ القطعِ واليقين وجود الله تعالىٰ، وعلىٰ إرساله للرسل، وتنوعهم بالرسالة، وأنهم جاؤوا لمصلحتنا؟

قال: نعم.

قلت: بقي آخر رسولٍ ونبي، وهو محمَّدٌ صلىٰ الله عليه وسلم.

عندها بدأ النقاش الصعب والحاد..

وهذا الأمرُ هو الذي بدأني بالسؤال عنه، وهو مُنطلَقُ شكِّه، وهو الذي منه يُثير علىٰ الأساتذة وزملائه الأسئلة التي تُوحي بالشكوك، ويطلب أجوبةً لهذه التناقضات- بحسب رأيه وفهمه-، ولكن هذا التسلسل هو الذي مهَّد الطريق لإقناعه، وزوالِ ودحضِ شكوكه وأوهامه.

فأخذت أوراقًا وقلمًا، وبدأت أناقشه مستعينًا بالله ثم بها، فهي أدعىٰ لفهمه واستيعابه.

قلت له: أتعرف ما هو أهمّ وأعظم ما جاء به محمدٍ صلىٰ الله عليه وسلم؟

إنه جاء وأُرسل لغايات كثيرة ضرورية، منها:

١- تعريفنا بأنفسنا، وكيف نتعامل معها، ومع الآخرين.

٢- تعريفنا بالكون، وكيف ولماذا خُلق، وهو أمرٌ أعقد من سابقه، قال تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾.

٣- تعريفنا بحالنا ومصيرنا بعد الموت، وهو أمرٌ أعقد من الأمرين السابقين.

فلْنبدأ بالغاية الأولىٰ: ألا توافقني بأنَّ من أصعب الأمور التعامل مع نفسك؟ قال:

بلىٰ، قلت: معك حق، ولذلك أُنشئت جامعاتٌ وتخصصاتٌ لدراستها، ومعرفة حقيقتها وخصائصها، وكيفيَّة التعامل معها.

فنبيُّنا محمدٌ صلىٰ الله عليه وسلم أرسله الله إلينا لكي يُعلِّمَنا كيف نتعامل مع أنفسنا ومع الآخرين، ولذلك شرع لنا الصلاة، وأنزل القرآن، وهما غذاء النفس والروح، وعلَّمنا الأخلاق والآداب، وعلَّمنا التسامح والرحمة والرفق والحلم والصبر، ونهانا عن إيذاء الناس وسبّهم والقدح بهم بغير حقّ ومصلحة.

انظر إلىٰ كبار السن، تجد عندهم راحةً نفسيَّةً عجيبة.

هل وجدت أحداً من كبار السن يجد قلقًا وتعاسةً في حياته وقلبه؟.

قال: لا.

قلت: لأنَّ نبينا محمدًا – الصادق الأمين – صلىٰ الله عليه وسلم دلّهم وأرشدهم إلىٰ ما يشرح صدورهم من الإيمان بالقضاء والقدر، والرضا بالله، والتوجه إليه في السراء والضراء.

إنّ ملايين البشر يعيشون باكتئاب حادّ، وهمّ وغمّ لا يُفارقهم لا يُحصيهم إلا الله، بسبب المصائب التي حصلت لهم، كفقد حبيب، أو خسارة مال، أو فصلٍ من وظيفة، أو ظلم، فلم يُطيقوا العيش، ولم يعرفوا وسائل النجاة من تلك الصدمات..

وأما المؤمن فهو مطمئنّ النفس حتىٰ في أحْلك الظروف؛ لأنّ عنده عقيدةً راسخة بأنّ كلّ مصيبة فهي من الله ربّه الرحيم به، العليم بما يُصلحه، فهو يرضا بما يقضيه له، ويحمده عليها، ويفزع إليه عندها، مهو ملاذُه وأمانه ورجاؤه..

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وأما الغاية الثانية فهي الكون: فالله تعالىٰ قد ذكر لنا في كتابه عن الكون، وعن سعة ملكه، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، والعلماء الفلكيون أثبتوا أن الكون في حالة توسّع مستمرّ.

وأخبرنا ربّنا عن الشمس والقمر وبديع دورانهما، وأخبرنا عن الجبال وكيفيَّة إرسائها.

قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوَاْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الَّلَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

فقلت: ألا توافقني علىٰ ذلك؟.

قال: لا!!

قلت: أشكرك علىٰ صراحتك، ولكن أخبرني لِمَ؟

قال: لقد أثبت الفلكيون أنَّ للكون بدايةً ونشأة، وهو ما يُسمَّىٰ في علم الكون الفيزيائي: الانفجار العظيم (بالإنجليزية: **Big Bang**).

فقلت في نفسي: ليتك وأمثالك مِـمَّن يمتلك عقلاً أنْ يُحسن التعامل معه، فهل

هناك أحدٌ نشأ بين مسلمين يجعل من هذا إشكالاً!!.

فأجبته وقلت: إنَّ ما تذكره من نظرية الانفجار العظيم: قد شاهدت في الشبكة العنكبوتية الكلام عنها قبل ثمان سنوات، يوم أنْ كُنْتَ أنتَ في المرحلة الابتدائية، ولخَّصْتُها في مذكرةٍ عندي، ولابدّ أنْ تعلم أنّ شرعنا العظيم الْمُطهَّر قد ذكرها وقرّرها.

قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، قال بعض العلماء: أي متلاصقةً كتلةً واحدة، ففجرها الله، فأنشأ منها الكواكب والشمس والأرض.

فقلت له: هل توافقني الآن؟

قال: نعم، ولكن بقي إشكالان:

أحدها: أنه ورد أنَّ الشمس لا تغيب حتىٰ تسجد! فكيف يتوافق هذا مع ما يُثبته العلم الحديث ومع ما نراه بأعيننا؟

فقلت له: ما ذكرته هو قول النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: "أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟" قال: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّىٰ تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ." رواه البخاري(١)

ولا بدّ أنْ أبين لك المقصود من السجود، قال أهل العلم: سجودُ كلِّ شيءٍ بحسبه، وليس معنىٰ السجود هنا: توافر الأعضاء والأطراف التي في بني آدم لتحقيق

(١) صحيح البخاري (٤٨٠٢).

السجود بالنسبة للشمس، فمن معاني السجود في اللغة: الخضوع كما ذكره ابن منظور وغيره، وعليه يُحمل ما في هذا الحديث وهو المقصود في قوله تعالىٰ في آية الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

قال ابن كثيرٍ رحمه الله: "يخبر تعالىٰ أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعـًا وكرهـًا، وسجود كل شيء مما يختص به". ا.ه كلامه

فسجود الشمس والطير والدواب: خضوعها لله، وكونها تحت سيطرته وملكه وتدبيره.

وأما سجودها تحت العرش، فلا بدّ أنْ نعرف أنَّ الشمسَ لهَا سجدتان: سجودٌ عامٌ مستديمٌ وهو سجودها المذكور في آية النحل والحج مع سائر المخلوقات، وسجودٌ خاصٌ يتحقق عند محاذاتها لباطن العرش فتكون ساجدةً تحته، وهو المذكور في الحديث، وفي كلا الحالتين لا يلزم من سجودها أن يشابه سجود الآدميين، ولا أن تتوقف عن الحركة حال مُحاذاتها.

فقال لي: بهذا التفسير لا أجد عقلي يُخالفه أو يُنكره، ولكن لماذا لم نتعلم هذا الكلام من المعلمين الذين كنا نسألهم؟

قلت له: هل كانوا يقولون : بأن الشمس تسجد كسجود الآدميين؟

قال: لا، ولكنهم يقولون: نؤمن ونَكِلُ كيفيَّته إلىٰ الله.

فقلت: المهم أني أخبرتك بالتفسير الصحيح، وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم.

قال: **وأما الإشكال الثاني فهو**: أنه ورد أن السماوات سبعٌ ونحن لا نرىٰ إلا سماءً واحدة؟.

فقلت: كما هو معلومٌ أنَّ علماء الفلك أجمعوا علىٰ أنَّهم لم يتمكنوا من الإحاطة بالكون ولا عشر معشاره، وما تعرفه من كثرة وعظمة المجرات كلها تحت محيط السماء الدنيا، فمن أين لك أنه لا يُوجد سماءٌ فوق سمائنا، وإذا كنا قد اتفقنا علىٰ أن الله حق، فما قاله حقٌّ أيضا، فقد أخبرنا أن السماوات سبعٌ فقال: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ ثم تأمل ما ذكره من الحكمة في خلقها بهذه الكثرة والعظمة: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

فمن حكمةِ خلقه لهذا الكون الكبير العظيم: أن نستدلّ به علىٰ كمال قدرة الله علىٰ كلّ شيء، وعلىٰ كمال علمه بكلّ شيء.

فالذي خلق هذا الكون المعقّد، الذي يسير بانتظام تامّ محكَم: قادر علىٰ فعل أيّ شيء، ولا يخفىٰ عليه شيء أبدًا.

قلت: فهل اتفقنا الآن؟

قال: نعم.

قلت: بقي الأخير، وهو حالُنا ومصيرنا بعد الموت.

قال: نعم، وهو أعْقد الأمور عندي، وأجد صعوبةً بالغةً في تصديق كثيرٍ منها.

قلت: الأمر يسيرٌ جداً، لكن ما رأيك أنْ نضع قاعدةً نتفق عليها، ثم نبحر في هذه الجزْئية بعدها؟

قال: تفضل.

قلت - وأخرجت له الجوال وفتحت بطاريته-: ما رأيك لو دخلت علىٰ زملائك وهم مُنْهمكون في النقاش عن سبب اقتصارِ من صنَعه علىٰ هذه الأسلاك الأربعة، لِمَ لَمْ يجْعلها خمسةً!! ما رأيك: هل سؤالهم في محلِّه؟

قال: طبعـًا لا ، وهو سؤالٌ سخيف.

قلت: لِمَ؟

قال: لأنهم لن يستفيدوا من الإجابة شيئـًا.

قلت: إذن نتفق أنَّ أيَّ سؤالٍ لا نستفيد من الإجابة عليه فهو سؤالٌ خاطئ؟

قال: نعم.

قلت: وكذلك نزيد توضيحـًا: أنهم سألوا سؤالاً ووجهوه إلىٰ شخصٍ ليس هو من تخصصه، ولو سألوا مَن صنعه لكن السؤال وجيها نوعـًا ما، أتوافقني؟.

قال: نعم.

قلت: بعد تقرير هذه القاعدة التي اتفقنا عليها، أعطني ما عندك.

قال لي: أجد صعوبةً في تصديق بعض الأمور الغيبية، كعذاب القبر، وضيقه واتّساعه، ونحن إذا حفرنا القبر لا نرىٰ شيئـًا!!.

قلت: أرأيت هذا الجوال، هل خطر علىٰ بالك يومـًا ما أنْ تُفتش جزئيَّاته وتسأل عن تفاصيله؟

قال: لا.

قلت: فكذلك الأمور الغيبية، لِمَ تسأل عن جزئيَّاتها، وهي لم تأتك بعدُ؟

ولا تنس أنك قرَّرت بنفسك أنَّ أيَّ سؤالٍ لا نستفيد من الإجابة عليه فهو سؤالٌ خاطئ، فماذا تستفيد من إشغال نفسك وذهنِك بأمورٍ لا تستفيد من البحث عنها، ولن تؤثر علىٰ حياتك وعيشِك، فأشْغل ذهنك وفكرك وجهدك بما ينفعك.

ثم هنا أمرٌ آخر مهم: ألست وافقتني علىٰ أنك مؤمنٌ مصدِّقٌ بالله ورسوله؟

قال: بلىٰ.

قلت: فيلزمك أنْ تُؤمن بجميع ما أخبر اللهُ ورسولُه.

والعقل نِطاقه ضيِّق، لا يتحمّل أنْ يعي أمور الغيب كلها، وأسرارها وتفاصيلها، فإذا جاء يوم القيامة، أعطىٰ الله المؤمنين قوَّةً عقليةً وجسميةً يُدركون بها هذه الأمور.

ثم إن الله تعالىٰ لا بدّ أنْ يميّز المؤمن من عباده المحبّ لربه من الفاجر الكافر، فلذلك ألزمنا بالإيمان بالغيب ليتبين المؤمن المصدق من الكافر المكذب..

ولو أصبح الإيمان مقتصرًا علىٰ التصديق بأمور حسيّة: لَمَا كان لإيمان المؤمن ميزةٌ وفضيلة، حيث آمن وصدّق بما رآه وأحسّ به.

وأخيراً أليس الله تعالىٰ قد أقام لنا من الحجج والبراهين والآيات الظاهرة في أنفسنا وفي الكون؟.

تأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِيَ أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾.

وتأمل قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ لآيات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أليست هذه آياتٌ ظاهرةٌ كافيةٌ في تقرير وحدانية الله والتصديق بما جاء؟.

أليس من حقِّ الله تعالىٰ أنْ يحجب عنَّا ويغيِّب عنَّا بعض الأمور ليبتلينا ويختبر الصادق منا؟

أرأيت لو أنَّ معلماً أملىٰ عليك الأسئلة، وجعل السؤال الأخير سؤالاً صعباً دقيقاً ليُميِّز به الطالب الْمُجتهد من الطالب الكسول: أكنت تلومه علىٰ ذلك؟

قال: لا.

قلت: ولله المثل الأعلىٰ، فهو سهَّل علينا طريق الإيمان به، فأنزل كتاباً واضحاً مُعْجزاً، وأرسل لنا رسولاً ناصحاً أميناً، أيحقُّ لك أنْ تعترض عليه حينما أخفىٰ عنك أموراً غيبيةً يبتليك ويختبرك بها؟.

ثمّ إني سأقرّر لك خمسَ قواعد:

القاعدة الأولىٰ: أنَّ من حقِّ الله تعالىٰ الذي خلقنا وهو أعلم بنا أنْ يُخفي عنا بعض الأمور لمصلحتنا، ووعدنا بمعرفتها بعد بعثتنا، ككيفية ضيق القبر واتِّساعه، وعذاب القبر ونعيمه، ألا توافقني بأنَّ هذا من حقِّه؟

قال: نعم.

القاعدة الثانية: أنه سبحانه وتعالىٰ ألزمنا بالإيمان بالغيب، ولم يُلْزمنا بالسؤال عنه، فلو أنَّ كبير السن مات دون أن يعرف تفاصيل ما بعد الموت، أيُعاقبه الله؟

قال: لا.

قلت: إذن توافقني علىٰ ذلك؟

قال: نعم.

القاعدة الثالثة: أنَّك إذا أتيت علىٰ أمرٍ تستغربه من أمور الدين والغيب، وصعب عليك اسْتيعابه: فتعامل معه بتسلسلٍ وتحليلٍ منطقيٍّ، فحينها يسهل عليك فهمه واسْتيعابه.

وسأعطيك مثالاً: هب أني وإياك رجعنا للوراء مائتي سنة، فقلت لك: سأريك الآن شيئًا في يدي يعرض لنا ما يحدث في الجهة المقابلة لنا من الأرض، وسأتحدث مع أناسٍ هناك، فهل ستصدق؟

قال: لا.

قلت: ولكن لو بدأت معك بالتسلسل والتحليل المنطقي، فقلت لك: بأنه بعد عشرين سنةً سيكتشف العالم نفطًا يصنعون منه طاقةً تولد كهرباء، ثم بعد ذلك سيخترعون جهازاً يُسمَّىٰ الهاتف، تضعه علىٰ أذنك فتخاطب الآخرين عبر أسلاكٍ ممتدَّة، ثم بعد ذلك سيخترعون جهازاً يلتقط الصور الطبيعية، وينقل كل شيءٍ بشكلٍ مباشر، ثم تزداد الاختراعات، فيخترعون جهازاً هاتفيًّا جهازاً هاتفيًّا له قدرةٌ

علىٰ تصوير ما حولك، وتستطيع من خلاله أن تتحدث مع جميع الناس بأي مكان..

فهل مع هذا التسلسل المنطقي ستتقبل الكلام السابق؟

فأجاب: نعم.

قلت: وهكذا إذا أخذت ما تستبعده بهذه الطريقة فإنك ستراه سهلًا مقنعًا.

وخذ مثالاً لما اسْتشكلته من القضاء والقدر: عندما تقول بأنَّ الله كتب عليّ كلّ شيءٍ، فمعناه أني مجبورٌ علىٰ عملي وعلىٰ ما أرتكبه من المعاصي، وليس لي اختيار، فكيف يُعاقبني علىٰ شيءٍ كتبه عليّ؟!

وهذا الاستشكال قد وقع عند الكثير من الناس بسبب عدم أخذهم هذا الأمر بطريقةٍ تسلسليّة منطقية.

فإليك التسلسل بكل سهولةٍ ووضوح: أليس الله تعالىٰ الذي خلقنا وخلق كلَّ شيءٍ، والذي يعلم السر وأخفىٰ: يعلم ما سوف نعمله من أعمالٍ صالحةٍ أو سيئة؟ بلىٰ، فإذا كان يعلم ذلك: أليس الذي يعلم ما سيحدث في المستقبل قادرٌ علىٰ كتابة علمه؟ بلىٰ، ولذلك يقول محمد بن سيرين رحمه الله: ما ينكر قومٌ أنَّ الله عز وجل عَلِمَ شيئًا فكتبه؟

فقد عَلِمَ – سبحانه – ما سيكون فكتبه وأملاه في اللوح المحفوظ، وليس معنىٰ كتب: أوجب وألزم، بل: أملىٰ علمه، فإذا كان الله سبحانه وتعالىٰ قادراً علىٰ علم ما سيكون أليس قادراً علىٰ كتابة علمه؟

فأيُّ علاقةٍ بين هذا وبين إجبارك علىٰ المعاصي والعمل؟

فمثلا: علم أنك ستذهب إلىٰ مكان كذا، ثم ستشتري خمراً، ثم ستدخل محلاً وستسرق، فكتب علمه ذلك في اللوح المحفوظ، فهل في هذا ما يُخالف العقل؟.

وخذ مثالاً لما اسْتشكلته من عذاب ونعيم القبر، وكيف يكون ونحن لا نرىٰ أثراً عليه؟: قال شيخ الإسلام رحمه الله: والنائم يحصل له في منامه لذة وألم، وذلك يحصل للروح والبدن، حتىٰ إنه يحصل له في منامه من يضربه، فيصبح والوجع في بدنه، ويرىٰ في منامه أنه أُطعم شيئًا طيبًا، فيصبح وطعمه في فمه وهذا موجود.

فإذا كان النائم يحصل لروحه وبدنه من النعيم والعذاب ما يحس به والذي إلىٰ جنبه لا يحس به حتىٰ قد يصيح النائم من شدة الألم، أو الفزع الذي يحصل له ويسمع اليقظان صياحه، وقد يتكلم إما بقرآن، وإما بذكر، وإما بجواب.

واليقظان يسمع ذلك وهو نائم، عينه مغمضة، ولو خوطب لم يسمع فكيف ينكر حال المقبور الذي أخبر الرسول صلىٰ الله عليه وسلم أنه يسمع قرع نعالهم، وقال : "ما أنتم بأسمع لما أقول منهم"(١).

ولا يجوز أن يقال : ذلك الذي يجده الميت من النعيم والعذاب، مثلما يجده النائم في منامه، بل ذلك النعيم والعذاب أكمل وأبلغ وأتم وهو نعيم حقيقي وعذاب حقيقي، ولكن يذكر هذا المثل لبيان إمكان ذلك. ا.ه كلامه

فهذا قياسٌ وتسلسلٌ منطقيٌّ مفيدٌ جداً.

القاعدة الرابعةُ: أن تعلم أنَّ العقل ضعيفٌ لا يتحمَّل أنْ يستوعب شيئًا فوق

---

(١) صحيح البخاري (٣٩٧٦).

قدراته.. وما أجمل حكمةً قالها أحدُ الحكماء: "لا ينبغي لعاقل أن يعْرض عقله للنظر في كل شيء، كما لا ينبغي أنْ يضرب بسيفه كلّ شيء".

ولو رجعنا للمثال السابق، وهو أنه لو قيل لرجلٍ قبل مِائتي سنة: سنريك الآن شيئًا نضعه في أيدينا يعرض لنا ما يحدث في الجهة المقابلة لنا من الكرةِ الأرضيةِ، وسنتحدث مع أناسٍ هناك، فهل سَيُصدِّقُ ذلك؟ لا يمكن، وسيراه من المحال، ونحن نراه الآن من البَدَهيَّات، فإيَّاك أنْ تسمحَ لعقلك أنْ يتشرَّب كلَّ شيءٍ، فلقد رأينا من فعل ذلك أصابته أمراضٌ نفسية، ووساوس قاتلة، أدَّت بكثيرٍ منهم إلىٰ الانتحار، إنها نهايةٌ طبيعيةٌ لمن أعرض عن دين الله وشرعه الذي هو المناسب لطبيعة البشر.

القاعدة الخامسةُ: أنَّ الله تعالىٰ مع ذلك لم يمنعنا من الأسئلة عن أمورٍ غيبيةٍ كثيرة، بل شرحها ووضَّحها لنا، فإنْ جهلتها فاتهم عقلك، ولا تتهم ربك.

فهات ما عندك من إشكالاتٍ وأنا مستعدٌّ بعد طول هذه الجلسة بالإجابة عنها.

فقال: لم يعُدْ عندي شيءٌ، فقد أجبتَ عمَّا كان يجول في خاطري.

ثم نظرت إلىٰ الساعة فإذا هي قد تجاوزت الثانية عشرة ظهراً، فتعجبت من سرعة انقضاء الوقت.

وقلت له في النهاية: ألَسْنا متوافقين بكلِّ شيءٍ تقريبًا؟

قال: بلىٰ.

قلت: فلم أُشيع عنك بأنك تُثِيرُ الشبهات والشكوك، فأنا لا أراك إلا مثل غيرك

تمامـًا، فأشكرك علىٰ أخلاقك وأدبك وإنصافك.

وأنصحك نصيحةً أخيرة: أنْ تعمل صيانةً دائمةً لعقلك وفكرك، وذلك بأنْ تجلس مع نفسك جلسةً صادقةً، وتنظر فيما وصلت إليه، وتتأمَّل في أفكارك ومعلوماتك، ومدىٰ اسْتقرارك النفسي، فكما أنك تفحص وتعمل تحاليل لجسمك وعينك ومعدتك: بل كلُّ جهازٍ وهو جمادٌ تَعمل له صيانةً، كجوالك، وسيارتك، فعقلك وفكرك من باب أولىٰ، وهل هي رخيصةٌ ومُهمَلةٌ عندك إلىٰ هذه الدرجة!.

ومن أعظم ما يُعينك علىٰ ذلك: أنْ تستشير وتُصارح صديقـًا مُخلصـًا أمينـًا، أو شيخـًا أو أستاذاً واعيـًا، فلا تحكم علىٰ نفسك بنفسك، ولكن انظر إلىٰ من هو أكبر وأعلم منك فخذ بنصحه ورأيه.

مُلحدةٌ عنيفة

جاءتني مساء الاثنين، الثاني عشر من شهر رمضان، من عام (١٤٣٦هـ) هذه الرسالة:

السلام عليكم، يا شيخ هل أنت تُناقش الأفكار الْمُنحرفة؟!

فأجبت: عليكم السلام، لست متخصصا بذلك، ولكن إذا دعت الحاجة ناقشتها، حمانا الله وإياكم من الشك والريب، ورزقنا اليقين ففيه العيش والنعيم.

قالت: لأنني قرأت لك قصةً مع طالب بعنوان: قصّتي مع المشكّك في الدين؟ فهل القصة صحيحة؟

قلت: نعم.

قالت: انظر إلىٰ هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمَا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾، الله هداني للإسلام فلماذا أضلّني وسلب مني نعمة الإسلام، بالرغم إني أحب هذه النعمة، ولستُ متكبرة، يعني الله خذلني!!، لماذا؟

فقلت: تسمحين أنْ يكون النقاش بالهاتف؟

قالت: أليس عندكم أنتم أيها المشايخ أنه لا يجوز أن تكلموا النساء؟ وصوت المرأة عورة عندكم؟

حتىٰ حينما نمر عليهم في الصلاة يقولون نجسة؛ لأنها قطعت صلاتهم!

ومع شدة هجومها الشّرس العنيف إلا أني مع ذلك رحمتُها؛ لأني أعلم أنّ سبب

ذلك هو كميّة الهمّ والغمّ والتناقض التي عجز صدرُها عن حمله، فهي تحاول بكلامها القاسي أنْ تُرَوِّح عن نفسها..

فقلت لها: صوت المرأة ليس بعورة، ولا حرج في حديثها للرجل عند الحاجة، وجميعُ إشكالاتك سجليها في ورقة وناقشيني عليها..

هكذا بدأت هذه الفتاةُ المتحيرة رسالتها، وكان واضحًا عليها التوتر والهجوم والحدّة.

وعندما جاء الموعد، جرىٰ الاتصال، **قلت لها**: لقد بدا واضحًا عليك التوتر والهجوم والحدّة، وهكذا لمست ورأيت الذين يعيشون في حيرةٍ وقلقٍ يتصرفون كذلك؛ لأنهم يرون المجتمع مُناقضًا لهم، ويحسبون أنهم هم الأذكياء، حيث لا يُمررون كل شيءٍ دون تفكير وفهم، وأما بقية الناس فهم لا يُبالون بالعقل، ويأخذون عقيدتهم عن طريق التوارث.

قالت: صدقت، هكذا كان ولا زال شعوري، ولقد ناقشت قبلك ما يُقارب عشرةً من المشايخ، فلم أجد الإجابة المقنعة عما يدور في خَلَدي، ولا أراهم يفهمون ما أقصد.

قلت: أتمنىٰ أن تجدي عندي ما يُزيل الشك والريب من قلبك.

ولْنبدأ النقاش من الآية التي أشكلت عليك.

معنىٰ الآية ليس هو حسب ما فهمتيه، ولكن معناها: أن الله تعالىٰ بعدله لا يُضل أحدًا ضلالاً يُؤدّيه إلىٰ إدخاله نار جهنم، إلا بعد أنْ يُقيم الحجة عليه.

وأما قولك: "الله هداني للإسلام فلماذا أضلّني وسلب مني نعمة الإسلام"! فاعلمي أنّ من اهتدىٰ هدايةً صحيحة، وامتلأ قلبُه بالإيمان بقناعةٍ ويقين، لا يُمكن أنْ يتركه وينتكس، بل من انتكس فهو لم يهتد الهداية الصحيحة، بل استقام ظاهره فقط، مع صلاحٍ يسير في باطنه.

قالت: كلامك مقنع، ولكن الذي أوجد الشك في قلبي-وانتقلت لموضوع آخر- هو الاختلاف في الأحاديث، فمرةً يُصححون حديثًا، ومرةً يُضعفونه! ولو كانت هذه الأحاديث محفوظةً لما اضطربوا في ذلك.

قلت: لفهم هذه الْجُزئية لابدّ من فهم كيف وصلنا القرآن الكريم.

حينما أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ نبينا صلىٰ الله عليه وسلم القرآن الكريم، حفظه هو والكثير من أصحابِه في صدورهم، فلما تُوفي قام خليفتُه من بعده أبو بكر رضي الله عنه فجمعه من صدور الصحابة، وحفظه في كتاب، وهو المحفوظ إلىٰ يومنا هذا.

ثم جعل الصحابة يُدَرِّسُونه ويُقرئونه لطلابهم، والطلاب أقرؤوه لطلابهم، وهكذا إلىٰ وقتنا الحاضر، فالقرآن نتلقاه نحن بالتواتر والسند، فأيّ حفظ له أعظم من هذا؟ وصدق الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَه لَحَـافِظُونَ﴾.

بل "كانت هناك مدارس متعددة في تفسير القرآن وتعليمه، لكل مدرسة خصائصها وأساتذتها وطلابها، فكانت هناك مدرسة الحجاز، وهي تشمل مدرستين: مدرسة مكة، وأستاذها الأكبر ابن عباس، ومدرسة المدينة، ومن أساتذتها : علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب.

ومدرسة العراق، وأستاذها الأكبر : ابن مسعود.

ومدرسة الشام، ومن أساتذها من الصحابة : أبو الدرداء الأنصاري الخزرجي، وتميم الداري راهب عصره، وعابد أهل فلسطين.

ومدرسة مصر وأستاذها الأكبر : عبد الله بن عمرو بن العاص.

ومدرسة اليمن وأستاذاها الأكبران : معاذ بن جبل، وأبو موسىٰ الأشعري، إلىٰ غير ذلك من المدارس التي انتشرت في العالم الإسلامي".(١)

فهذا القرآنُ الذي بين أيدينا، قد حَفِظَه الأجيال جيلاً بعد جيل، بل وكلُّ عالمٍ في القراءات له سندٌ متصلٌ إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم، أخذ القرآن مُشافهةً عن شيخه، وشيخُه أخذه عن شيخه، وهكذا إلىٰ أنْ يَصِلَ إلىٰ النبيِّ صلىٰ الله عليه وسلم.

وأما بالنسبة لكيفيّة كتابة الأحاديث وكيف وصلتنا، فبيان ذلك بما يلي:

لقد بعث الله تعالىٰ نبينا محمدًّا صلىٰ الله عليه وسلم ليُعلم الناس ويُبلغهم مُراد الله تعالىٰ، فبلغ الرسالة وأدىٰ الأمانة كما أمره ربُّه، فلمّا تُوفي قام أصحابُه من بعده بتعليم الناس الذين لم يُشاهدوه ولم يصحبوه، وهم الْمُسمّون بالتابعين، فأنشأ كلّ صحابيّ حلقةً في مسجد في كل بلد، في الكوفة والبصرة والمدينة ومكة وغيرها ليُدرسوا الناس ما سمعوه وشاهدوه من رسولهم وحبيبهم صلىٰ الله عليه وسلم.

---

(١) – الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للدكتور محمد بن محمد أبو شهبة ـ رحمه الله ـ: ٧٢.

وكان يحضر آلاف الطلاب عندهم، وكانوا يمتلكون حافظةً عجيبة، وذكاءً وقّادًا، فلمّا تُوفي الصحابةُ أو أكثرهم قام طلابُهم التابعون بتبليغ سنة الرسول للناس، فأنشؤوا الحلق الكثيرة في شتىٰ أصقاع الأرض، فانتشرت سنة الرسول وكلامُه وسيرتُه انتشارًا عظيمًا، وقام أحد التابعين بتدوين سيرته وسيرة أصحابِه، وهو مُحَمَّدُ بنُ إِسْحَاقَ بنِ يَسَار، الذي وُلد سَنَةَ (٨٠) وتُوفي عام (١٥١) هـ.

قال عنه الذهبي رحمه الله: وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ دَوَّنَ العِلْمَ بِالمَدِيْنَةِ، وَذَلِكَ قَبْلَ مَالِكٍ وَذَوِيْهِ، وَكَانَ فِي العِلْمِ بَحْراً عَجَّاجاً. ا.ه

فسيرةُ نبينا محفوظةٌ منذ عهد التابعين.

ولم يكتف جيل التابعين وتابعيهم بهذا، بل ألفوا كتبًا خاصَّةً في السنة القولية والفعليّة، ومن أوائل من انبرىٰ لهذا الأمر: الإِمَامُ مَالِكُ بنُ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ المَدَنِيُّ، قال عنه الذهبي رحمه الله تعالىٰ: "هُوَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ، حُجَّةُ الأُمَّةِ، إِمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ، مَوْلِدُ مَالِكٍ عَلَىٰ الأَصَحِّ: فِي سَنَةِ ثَلاَثٍ وَتِسْعِيْنَ، عَامَ مَوْتِ أَنَسٍ خَادِمِ رَسُوْلِ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-." ا.ه

وقد تلقىٰ الأحاديث عن كبار التابعين، فدون ما تلقاه في كتابه الْموطأ، وهو موجودٌ ومطبوع.

فبذلك ازداد حِفظ السنة النبويّة في عهد تابعي التابعين، وهو عهدٌ قريبٌ جدًّا من عهد النبوّة.

ثم بعد ذلك جاء الكثير من العلماءِ فدّونوا الأحاديث، ولكن لم يشترطوا فيها أن تكون صحيحةً، بل وضعوا في مُصنّفاتهم ما حدّثهم به شُيُوخهم.

ثم جاء الإمام البخاريّ ومسلم، وهما من أكبر علماء الحديث في زمنهم، فألف كلّ واحدٍ منهما كتابًا اشترط فيه الصحة، وأن كل حديث يرويه في كتابه فهو صحيح.

وقد اشترطوا للحديث الصحيح شروطًا قويّةً دقيقة، فقالوا في تعريف الحديث الصحيح: هو الحديث الذي يرويه العدل التام الضبط، بسند متصل، ولا يكون شاذاً ولا معلَّلاً.

ومن هذا التعريف يمكن إجمال شروط الحديث الصحيح بما يلي :

الأول: عدالة جميع رواته، وذلك بأن يكون مشهودًا لهم بالاستقامة في السيرة والدين، التي تمنع صاحبها من اقتراف الكبائر والإصرار علىٰ الصغائر.

الثاني: تمام ضبط رواته لما يروون، وذلك بأنْ يكونوا حفَّاظًا مُتقنين.

الثالث: اتصال السند من أوَّله إلىٰ منتهاه، بحيث يكون كل راوٍ قد سمع الحديث ممن فوقه.

وهو سماع كل راو من الراوي الذي يليه بإحدىٰ الصيغ الصريحة، كـ (سمعت) أو (حدثنا) أو (أخبرنا) أو (عن) من غير مدلِّس.

وأما إذا كان الراوي مُدلّسًا فلا يقبلونه.

والمدلِّس: هو الذي أخفىٰ عيبًا في إسناده، لكي يصير ظاهره مقبولًا.

وهذا من دقة أهل الحديث وتشدّدهم في قبول أحاديث الشيوخ.

مثال التدليس: أنَّ سفيان بن عيينة وهو أحد الرواة، حدّث مرّةً فقال: عن الزهري.. ثم أكمل الحديث.

فقال له أحد طلابه الحريصون علىٰ صحة السند: سمعته أنتَ من الزهري؟ فقال: لا، حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري.

فانظر كيف أسقط راوِيَيْنِ مِنْ إسنادِه، وهذان الراويان ثقتان، ولكنّ المصيبة حينما يكون الذين أسقطهم أحدُ الضعفاء، فلأجل هذا حرص المحدّثون علىٰ معرفة جميع تفاصيلِ رجال الإسناد.

ولو قال الشيخ والعالم كالإمام الشافعي ومالك وغيرهما: حدّثني ثقةٌ، أو من أثق به، أو من لا أتهم، لم يَقْبل أهلُ الحديث ذلك منه، ولم يُصححوا حديثه، إلا إذا صرّح بمن حدّثه، وتأكدوا من عدالته وضبطه وإتقانِه! مع أنّ من حدّثهم هم صالحو التابعين أو تابعيهم! فأي دقّةٍ للأحاديث أعظم من هذا؟

ولو أن أحدَنا قال: حدثني من أثق به عن فلان كذا، وذكر قصة، ثم علم أن أحدًا ممن سمعه سُئِل عن القصة التي ذكرها ورواها، فقال: لم تثبت، لغضب.

والْمُحدّثون يردون مئات الأحاديث التي رواها علماء ثقات كالشافعي ومالك وأبي حنيفة وسفيان، إذا حدثوا عن ثقة عندهم، ولم يصرحوا باسمه.

وخذ مثالاً لذلك: قال الشافعي في مُسْنِده (٧٣٥): أخبرني من أثق به من أهل المدينة، عن ابن شهاب الزّهريّ، عن سعيد بن المسيب: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.. ثم ذكر الأثر.

فهل يقبل المحدثون هذا الأثر؟ مع أنّ كلّ من في الإسناد ثقاتٌ معروفون؟ لا؛ لأن فيه رجلاً مُبْهمًا، مع أنّ الشافعيّ وثّقه.

فهل يستريب أحدٌ بصحة الأحاديث التي وصلتنا وصححها المحدثون؟ وخاصَّةً من اشْترط الصحة في كتابه، كالبخاري ومسلم؟

الرابع: سلامة الحديث من الشذوذ في سنده ومتنه، ومعنىٰ الشذوذ : أن يخالف الراوي من هو أرجح منه.

الخامس: سلامة الحديث من العلة في سنده ومتنه، والعلة : سبب خفي يقدح في صحة الحديث، يطّلع عليه الأئمة المتقنون.

فهكذا وضع هذان الإمامان وغيرُهما هذه الشروط لقبول الأحاديث، وهو يتطلب منهم جُهدًا كبيرًا في ذلك، وقد أفنوا أعمارهم في ذلك.

وقد اتفق العلماء علىٰ قبول كتابيهما، وأنهما صحيحان، الكتب المسْنَدة بل هما أصح الكتب بعد القرآن الكريم.

فبذلك حفظ الله تعالىٰ لنا كتابه وسنة رسوله حفظًا دقيقًا.

والأحاديث التي اختلف فيها العلماء تصحيحًا وتضعيفًا: هي مما وردت في غير الصحيحين.

وبهذا يزول الإشكال الذي ذكرتيه، وهو سبب الاختلاف في الأحاديث، فمرةً يُصححون حديثًا، ومرةً يُضعفونه! ولو كان محفوظًا لما اضطربوا في ذلك.

قالت الفتاة: كلامك مُقنعٌ، وقد زال الإشكال الذي كان يُقلقني ويؤرّقني منذ

سنواتٍ عدّة.

قلت: إنّ هذا الدين عظيمٌ، ومن عظمته أنّ كثيرًا من الذين عادوه وحاربوه دخلوا فيه وآمنوا به، وكثيرٌ منهم سخّر وقته وماله في تعليمه للناس، ودعوتهم إليه!

فيا سبحان الله! يُحاربه ويستميت في كراهيته وتنفير الناس منه، ثم ما يلبث أنْ يدخل فيه بعد أن قرأ عنه، ورآه مُوافقًا للعقل والفطرة.

وقد أقبل علىٰ الإسلامِ الكمُّ الهائلُ من عقلاء الغرب والشرق، الْمُتَخَصِّصُون في الأديان والعقائد المعادية للإسلام، الْمُحاربون له بكلِّ ما أُوتوا من قوَّة..

لقد انقادوا لهذا الدين لَمَّا عرفوا حقيقته، ووقفوا علىٰ جماله وعظمته وحاجتهم الملحّة له، فشهدوا بصدقه وصحته، بل وأشهروا إسلامهم أمام الملأ، مع أنهم يعلمون أنهم سيتركون مناصبهمُ الكبيرة، التي تُدرّ عليهمُ الأموال والمكانة والسمعة.

ومن هؤلاء الثريّ والمحامي الأمريكي: مارك شيفر، الذي أشهر إسلامه في المملكة أثناء رحلةٍ سياحية، ومِّما قاله: أشعر أني ولدت من جديد، وأن حياتي قد بدأت!.

لم يجدِ الحياةَ السعيدةَ في ظلِّ ثروته الهائلة، لكنه وجدها في هذا الدين العظيم.

ومن أشهر هؤلاء: نائب رئيس الحزب الهولندي الحاكم السابق، وأكثر الأحزاب اليمينية تطرفًا وتشدداً ضد الإسلام والمسلمين، أرناود فاندورن، وقد كان يروج لأكثر الأفلام إساءة لدين الله "فيلم الفتنة"، وقوبل بحفاوة بالغة من الأوساط

اليمينية المتطرفة والصهيونية والكنيسة، ووزع علىٰ أوسع نطاق ممكن، وقوبل باحتجاجات كبيرة في العواصم العربية والإسلامية، وبينما كان يفكر منتجو "الفتنة" في إصدار فيلم آخر أكثر إساءة للإسلام، إذا بأرناود فاندورن يعلن إسلامه، ويشهد الشهادتين، بعد أن درس الإسلام بغرض الإساءة إليه فصار من أبنائه.

فلك أن تتعجبي من هذا الرجل، الذي يسكن في بلد من أغنىٰ بلدان العالم، وله مكانةٌ مرموقةٌ في قومه وحزبه، وهو من أعقل وأذكىٰ الناس، ويكفي أنه نائب حزبه، وأهم الشخصيَّات القائمة علىٰ إنتاج الفلم، فما الذي دعاه ليترك دينه النصراني، ويتخلىٰ عن مكانته المرموقة، التي يعلم أنه سيخسرها إذا أشهر إسلامه؟

إنها القناعة التي وجدها في دين الإسلام، حيث قرأ الكثير عنه لغرض الرد عليه، فانبهر من محاسن شرائعه، وأُعجِب بجمال آدابِه، وانقاد وخضع لقوة ووضوح الحجج والأدلة الدالة علىٰ صحته، واتضح له أنّ هذا الدين – فقط – هو الذي يتوافق مع العقل والفطرة السليمة.

لقد كان بين مفترق طريق:

– فإما أن يستمر في طريقه الذي كان يسلكه، وقد وضح له بالبراهين الساطعة أنه طريق خاطئ، يؤدي به إلىٰ نهاية فيها حتفُه.

– وإما أن يسير في اتجاه آخر، وضح له بالبراهين الساطعة أنه طريق صحيح، يؤدي به إلىٰ السلامة والأمن..

إنّه قد أيقن أنه سيموت.. وأيقن أنّ بعد الموت حياةً أخرىٰ، سيُسأل فيها عن

الحقّ والباطل.. والخير والشرّ.. والإيمان والكفر.. والدّين الصحيح والدّين المحرّف.. فلا مجال للمخاطرة والمكابَرة..

فاتّخَذ قراره الذي لا رجْعة فيه.. وهو اتباع الحق.. وسلوك طريق الخير والإيمان.. واتّباع الدّين الصحيح..

إنّه ليس بغريبٍ أن يتأثّر الضعفاءُ – ماديًّا أو عسكريًّا - بالأقوياء – ماديًّا أو عسكريًّا –، ولكنَّ الغريبَ أن يتأثّر القويُّ بالضعيفَ، وهذا يكاد يكون مستحيلاً، إلا إذا كان مع الضعيفِ سرٌّ جذبَ القوي إليه، والسرّ هو في تعاليم إسْلامِنَا، ومُلاءمتِه للعقل والفطرة، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام.

وقال رجلٌ غربيّ بعدما هداه الله للإسلام، وذاق جمال ومحاسن القِيَم والتعاليم الإسلامية – وقد اتّهمه بعض الناس بأنّ المسلمين قد غسلوا دماغه – : "إذا غسلوا دماغي لأكون مسلمًا، وأحترم والدِيَّ، وأساعد الفقراء، وأترك الكحول والمخدرات، وأتحكّم في غضبي، وأسالِم وأسامح: فأنا سعيدٌ بغسل دماغي لأصبح رجلًا أفضل!"

قالت: هذا الكلام مُؤثرٌ جدًّا، وإسلام أمثال هؤلاء يدل علىٰ أنهم وجدوا في الإسلام الشيء الكثير.

وإني مقتنعةٌ تمامًا مِمَّا ذكرت، **ولكنّ الذي لا أجد له جوابًا**: أني كلّما اقتربت من الله تعالىٰ ودعوتُه لا أجده يستجيب لي، ولا أجد سعادةً ولا راحة بعد القرب منه، فلذا أجدني ناقمةً مُحبَطَة!

قلت: السبب في ذلك أنك تدعينه تعالىٰ تجربةً أو لمصلحة، وهذا لا يليق بك فعله مع البشر، فكيف برب البشر.

لو أنّ أحد زميلاتك لا تعرفك إلا عند الحاجة، وإذا قضيت حاجتها نسيتك، ألا تزدرينها، وترينها صديقةً للمصلحة لا للمودة والمحبة؟

قالت: بلىٰ.

قلت: فلله المثل الأعلىٰ، فالله يعلم منك أنك ما تقربت منه إلا لحاجةٍ ومصلحة، وإذا لم يُعطيكِ ما أردت أعْرضتِ وغضبت، والله تعالىٰ لا يرضا بهذا أبدًا، بل هو غنيٌّ عنك وعنا جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

فالله إذا علم أنك ما دعوتيه إلا حبًّا له، سواء أجاب دعوتك أم لا، رضي بذلك، وملأ قلبك سعادةً وراحةً، ورضًا وطمأنينة، وما أقرب إجابته لك إذا كان هذا حالك.

وإذا لم يستجب الله لك دعوةً فلومي نفسك، واعتقدي جزمًا أنك السبب في ذلك، وأنك لا تستحقين أن يستجيب ذلك..

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالىٰ: " إنَّ المؤمن إذا استبطأ الفرج، وأيس منه بعدَ كثرة دعائه وتضرُّعه، ولم يظهر عليه أثرُ الإجابة يرجع إلىٰ نفسه باللائمة، وقال لها : إنَّما أوتيتُ من قِبَلِكَ، ولو كان فيك خيرٌ لأُجِبْتُ، وهذا اللومُ أحبُّ إلىٰ الله من كثيرٍ من الطَّاعاتِ، فإنَّه يُوجبُ انكسار العبد لمولاه واعترافه له بأنَّه أهلٌ لما نزل به من البلاء، وأنَّه ليس بأهلٍ لإجابة الدعاء، فلذلك تُسرِعُ إليه حينئذٍ إجابةُ الدعاء

وتفريجُ الكرب، فإنَّه تعالىٰ عندَ المنكسرةِ قلوبهم من أجله". ا.ه[١]

وفي الختام: اعلمي أنَّ الحياة لا تُطاق بدون الراحةِ النفسية، والراحةُ النفسيّة لا تُوجد إلا في الدين، فهو مصدر السعادة والراحة، وبقدر ما تبتعدين عنه تنقص الراحة، وتتقلّص السعادة والطمأنينة.

وصدق الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾.

ومتع الدنيا وكنوزها لا تسوىٰ شيئًا مقابل سعادة المؤمن بربه، وطمأنينته بخالقه، وليس في الدنيا سعادة تُضاهي السعادة التي ذاقها، قال الله تعالىٰ: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثىٰ وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ الحياة الطيبة هي حياة القلب، ونعيمه، وسروره بالإيمان، ومعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة.

وفي نهاية الحوار مع الفتاة اقتنعت والحمد لله تعالىٰ..

ونصحتُها بأنْ تقرأ القرآن بتأمل وتدبّر، وأنْ تُصلي بخشوع وطُمأنينة، وأنْ تُلحّ علىٰ الله بالدعاء الصادق بأنْ يُثبتها.

ثم جاءتني هذه الرسالة بعد يومين تقول: (يا شيخ، الحمد لله آمنت، واتخذت القرار: يا كفر يا إيمان، اخترت الراحة النفسية لي ولِصِحَّتِيْ، الذي هو الإيمان

---

(١) - **الجامع المنتخب**: ٢١٢-٢١٣.

والإسلام.

من الآن بإذن الله سأُخرج أفكار السموم من دماغي؛ لأني مبتلاةٌ من سنتين بالشكوك في العقيدة، ولابدّ أنْ أُبيِّن لله تعالىٰ أني جالسةٌ أُجاهد في إخراجه من دماغي، وأنا قادرةٌ بإذن الله؛ لأني لا أُريد إلا الله، لا أُريد أنْ أموت علىٰ الكفر، أُريد أنْ أُقابل الناس الذين أحببتهم في الجنة، أُريد رُؤيَةَ الله تعالىٰ، لا أُريد أنْ أحرم نفسي رؤيته لأجل أفكار إبليسية.. الله لا يحرمنا من لذة وجهه الكريم).

بهذه الكلمات أعلنت ترك الشك والريب والانتكاسة والحمد لله.

فأجبتُها: هنيئًا لك اختيار الطريق الصحيح، وأبشري بالسعادة واللذة.

ثم جاءتني هذه الرسالة منها تقول: يا شيخ، كيف أثبت علىٰ الإيمان؟ لا أُريد الرجوع إلىٰ الكفر والضلال.

فأجبتها بهذا الجواب:

إن مما يؤسف له ويندىٰ له الجبين، انتكاس بعض المستقيمين، الذين ذاقوا حلاوة الإيمان، والسعادة والاطمئنان.

فلا إله إلا الله، ما أعظمها من مصيبة، وما أشدها من طامة، أحدهم كان يحفظ القرآن ويحافظ علىٰ الصلوات، قلبه ليِّن، ودمعته سريعة، وفجأة ينتكس علىٰ عقبيه، باع دينه بدنياه.

ما أعظم ندامة المنتكسين يوم القيامة، وخاصة يوم الصّدود عن الحوض! وما هو هذا اليوم؟ اسمع الإجابة من نبيّك صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث يقول: "أَنَا فَرَطُكُمْ

عَلَىٰ الْحَوْضِ - أي متقدمكم وسابقكم إليه - وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي الْحَوْضَ حَتَّىٰ عَرَفْتُهُمُ اخْتُلِجُوا دُونِي، وفي رواية: فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ - أي إلىٰ النار- فَأَقُولُ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي". رواه البخاري ومسلم.(١)

فما أشدها من لحظة، وما أعظمها من خسارة، يوم أن ترد علىٰ رسول الله الحوض، حوض طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلىٰ من العسل، وعدد كيزانه كنجوم السماء، وأعظم من ذلك انتظار رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لك، وفرحه بك، يا لها من لحظة عظيمة، وسعادة لا توازيها سعادة، يوم أن ترىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في جماله وبهائه ونوره، فتتقدّم إليه، وكلُّك أنسٌ وسعادة وشوق إلىٰ لقائه، ثم تفاجأ بملائكة غلاظ شداد، يمنعونك من الوصول إلىٰ رسولك وحبيبك محمد صلىٰ الله عليه وسلم، فينادي عليك حُبًّا فيك، وشوقًا إلىٰ لقائك، ولكن يأتي الجواب: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فقد انقادوا لوساوس الشيطان، وأعرضوا عن طاعة الرحمن!

وأما أسباب الثبات علىٰ الهداية والاستقامة، فأُلخّصها بخمسة أسباب كفيلةٍ بثباتك - بإذن الله تعالىٰ-:

أول سببٍ وأعظمُه: الدعاء الصادق بالثبات علىٰ الدين، فإذا كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ

(١) - صحيح البخاري (٤٧٤٠)،صحيح مسلم (٢٨٦٠).

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ : "يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ"! فغيرُه أحوج إلىٰ الإكثار من هذا الدعاء.

والله عز وجل أخبر عن عباده المؤمنين أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

يدعون الله عز وجل أن يثبتهم، وألا يزيغ قلوبهم بعد أن هداها سبحانه.

وهذا إبراهيمُ رسولُ الله وخليلُه عليه الصلاةُ والسلام يدعو الله بهذا الدعاء ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾ خاف علىٰ نفسه وأبنائه من الشرك والردّة.

ونحن اليوم أحوجُ منه إلىٰ دعاء الله أن يجنبنا الشرك والردة والانتكاسة.

فاللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

فما أحوجني وإياك أنْ ندعو الله صباح مساء ألا يزيغ قلوبنا، وأن يثبتنا علىٰ دينه، فها هو إبليس اللعين والشيطان الرجيم، قد أخذ العهد وعقد العزم علىٰ إغوائنا وإضلالنا ﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ يقسم بعزة الله أن يغوينا ويضلنا كلنا، ثم استثنىٰ فقال: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾، فهؤلاء لا يستطيع إغواءَهم ولا إضلالهم؛ لأن الله تعالىٰ تكفّل بحاميهم وحفظهم؛ لأجل صلاحهم وصدق إيمانهم، ثم ردّ الله عليه بجواب عظيم فقال: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

فياله من تهديد أكيد، ووعيد شديد، لمن سار في ركب الشيطان، وأعرض عن سبيل الرحمن.

السبب الثاني: البعدُ عن مواقع الفتن والشهوات والشبهات، ومَن دخل وتساهل في الفتن والشبهات التي يتربّع الشيطان علىٰ عرشها: لم ينج ويسلم من غوائلها وشباكها وخطرها ولوَثها.

فمَن قلَّب مواقع الشبكةِ العنكبوتية، ومقاطع الفيديو وغيرها، ليتسلىٰ ويبحث عن الغرائب والعجائب، فلا بد أن تظهر له صورٌ فاتنة، ومقاطعُ فاضحة، وشبهاتٌ مُضلّلةٌ، ومع الأيام يعتادُ علىٰ ذلك، ويستمرئُ هذا الشيء، ويُصاب بالفتنة وهو لا يشعر ، فيصعب عليه التخلص منها.

قال ابن القيم رحمه الله: "فما اسْتُعين علىٰ التخلص من الشر، بمثل البعد عن أسبابه ومظانه".(١)

السبب الثالث: صدق النيّة في طلب الهداية والاستقامة، فالذي انتكس إنما انتكس لِأَنَّ نيَّتَه في الالتزام لم تكن صادقة وخالصة لله.

فعندما نسأل من لا يصلي: لماذا لا تصلي؟ نحتاج أيضًا أن نوجه السؤال لمن يصلي: وأنت لماذا تصلي؟

وأنت يا من أعفيت لحيتك لماذا أعفيتها؟

وأنت يا من قصرت ثوبك: لماذا قصرت ثوبك؟!

لماذا تركت مقاطع الأغاني وأقبلت علىٰ سماع القرآن؟!

لماذا أيتها الأخت الكريمة لبست الحجاب؟

---

(١) – عدة الصابرين / ٨٦.

فالجواب عند الكثير من الناس: هو أني فعلتُ ذلك عادةً لا عبادة.

فهو إنما يصلي لأنه نشأ في بيتٍ يُحافظ أهله علىٰ الصلاة فصلىٰ معهم..

إنه لم يستحضر أهمّيةَ الصلاة، ولا عظمة الوقوف بين يدي الله، فلذلك لم يجد لذتها وحلاوتها.. إنه يذهب للصلاة في اليوم خمس مرات، لكن لا أثر لها في حياته أبداً.

قد تجد أحدًا أعفىٰ لحيته.. لكن لم يتركها الله تعالىٰ؛ بل تركها لأن من حوله يُعفون لحاهم، فهو يستحي أن يخالفهم، ولهذا لو قُدّر له أن يكون عمله في منطقة بعيدة، وبيئة لا يُلقي أهلها لأمرِ اللحيةِ بالاً، لربما وافقهم واتَّبعهم علىٰ ذلك.

فلا بد إذا أن نستحضر الإخلاص والطاعة والعبادة في كل عملٍ نقوم به.

فإن لم يكن كل هذا لله فإنه مردود علىٰ صاحبه.

ولهذا السبب لم تؤت هذه الأعمالُ العظيمةُ ثمارَها، من ثبات وانشراحِ صدرٍ، وبركةٍ في الوقت والمال والولد.

السبب الرابع: تلاوةُ وتدبّر القرآن الكريم، والحذرُ من هجره، ومن أنواع هجر القرآن: هجرُ تلاوته وتدبّره، وفهم معانيه.

فالقرآن العظيم وسيلة الثبات الأولىٰ، وهو حبلُ الله المتين، والنور المبين، من تمسك به عصمه الله، ومن اتبعه أنجاه الله، ومن دعا إليه هُدي إلىٰ صراط مستقيم.

فما هي أحوالك مع كتاب الله عز وجل؟ كم يمر عليك من أيام، ولم تقرأ صفحة واحدة من كتاب الله؟ كيف يطيب لك العيش وأنت لم تتلذذ وتستمتع بتلاوة

القرآن؟ قال الله تعالىٰ عن القرآن ﴿لو أنزلنا هذا القرآن علىٰ جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ هل خشع قلبك ولو مرة واحدة في عمرك من أثر القرآن؟ أيتصدع ويخشع جبلٌ – لو أُنزل عليه القرآن وعقَلَه – وأنت لا يتحرك قلبك ولا تهتز مشاعرك من أثر هذا القرآن؟

فمن كان بعيدًا عن القرآن لن يثبت عند فتن الشبهات والشهوات؛ لأنه فقَد أعظم سبب للثبات.

السبب الخامس: اختيار الصحبة الصالحة، وقضاء الوقت معهم، والبعدُ عن الفراغ والصحبة السيّئة، فرفقاء السوء لا يزيدونك من الله إلا بُعداً، وهم من أعظم أسباب الانتكاسة والردّة، فكيف يرجو الثبات والاستمرار علىٰ الاستقامة من يجالس قومًا بُغضاء عند الله، ويجترئون علىٰ محارم الله، ويُحسّنون له الشهوات، ويُثيرون عليه الشبهات، ويحثّونه علىٰ السفر للاستمتاع بالمحرمات؟!

قال ابن القيم –رحمه الله–: "وكم جلبت خلطة الناس مِن نقمة، ودفعت من نعمة، وأَنزلت من محنة، وعطَّلت من منحة، وأحلَّت من رزيَّة، وأوقعت في بليَّة؟ وهل آفة النّاس إلَّا الناس؟ وهل كان علىٰ أبي طالبٍ عند الوفاة أضرُّ من قرناء السُّوء؟ لم يزالوا به حتَّىٰ حالوا بينه وبين كلمةٍ واحدةٍ توجب له سعادة الأبد".(١)

والفراغ قاتلٌ، فلا يسْلم الفارغ من أفكارٍ شيطانيّة، ووساوس إلحاديّةٍ أو شهوانيّة.

---

(١) – مدارج السالكين ١/ ٤٥٥.

قصةُ إلْحادِها وسببُ هدايتها تكتُبها بقَلَمِها

كنت في السابق أُحب الله تعالىٰ كثيرًا، وأستمتع إذا سمعت أحدًا يذكّرني بالله تعالىٰ، وأُحسّ بسعادةٍ وأنس عند ذكره، وبعد دخولي للجامعة انغمست في ملذات الدنيا، ونسيت الله كثيرًا، لكنّني مستمرةٌ في صلاتي، لكن أُؤَخِّرها عن وقتها، وفي آخر سنةٍ لي في الجامعة تبت إلىٰ الله عز وجلّ من كل الذنوب، ومن أيّ أمرٍ يُغضبه، وجاهدْتُ نفسي كي أعمل بما يُحبّه ويرضاه.

ثم تخرَّجْتُ من الجامعة، ودخلت تحفيظ قرآن.

ثم جاءت الطامّة والمصيبة، حينما حمَّلت برنامجًا في جوالي- ويا ليتني ما حملته- كان في بالي أنْ أُحَمِّلَهُ كي أَستفيد منه في الدين، وهذا البرنامج عبارةٌ عن غرفٍ، ودخلت إحدىٰ الغرف الملحدة، وكنت لا أتصور ولا أتخيل أنهم سَيُؤَثِّرون علي وعلىٰ عقيدتي بربّي.

وكانت الطامةُ أنّي انْهَزَمْتُ أمامهم، وبَدَأتْ تُراودني الشكوك- كيف.. وكيف.. وهل هذا صحيح..- وإلىٰ ما لا نهاية من الأسئلة الْمُشككة الْمُضلّلة والْمُحيّرة.

فضعف إيماني.. وتنكّد عيشي، وعظُم همّي وغمّي.. فأصبحتُ لا أنام الليل إلا قليلاً بسبب هذه الأفكار المنحرفة التي تتعارض مع فطرتي السليمة..

وتغيَّرتْ علاقتي مع الناس وأهلي وأمي وأبي..

وأصبحت أَصبّ جام غضبي عليهم، وهو أمرٌ لا أستطيع التحكم فيه..

كانت مُنحطّة ومحبطةً نفسيًّا..

قلت في نفسي يومًا: لماذا يحدث هذا لي؟؟ فأَجهشُ بالبكاء.

صرختُ وقلت: يا رب لا تتركني، أنا أُحبك، وأُريد أن أسجد لك يوم تَكشف عن الساق.

ابْتعدْتُ عن الناس في حالة اختلاء مع النفس، وكل ما ابْتعدت عنهم ازدادت الوساوس، فعلمتُ بأنّ الفراغ لا يُناسبني.

ومضت أيامٌ تعذبت فيها، ثم قلت: سأذهب إلىٰ دار تحفيظ القرآن، لعلي أجد رفقةً صالحةً تنتشلني من هذه الشكوك القاتلة، ولعلي أقرأ القرآن والتفسير لترجع لي عقيدتي الصافية التي ضاعت! وفعلاً الْتحقت بالدار، ولكن بدون جدوىٰ.

مضت الأيام الطويلةُ وأنا علىٰ هذا الحال، فتعبت كثيرًا حتىٰ أصبحت أذهب لطبيبٍ نفسيٍّ، حيث جال في خاطري أنّ ما حلّ بي قد يكون بسبب نقص فيتاميناتٍ سَبَّبَتْ لي هذه الوساوس، فذهبت إليه، وأخذت الحبوب والنصائح، ولكن دون جدوىٰ، ولم أستفدْ من هذه الأدوية.

وبعد هذه التجربة الفاشلة قرّرت الذهاب إلىٰ راقٍ، فقد أكون أُصبتُ بعينٍ أو مسٍّ أو سحرٍ، سَبَّبَ لي هذه الوساوس؛ لأنّي كنت أدخل من سؤال مُشكك إلىٰ سؤالٍ مُشكك آخر! وأنا لم أقرأ ولم أطّلع علىٰ مواقع الملحدين، فتأتيني أفكار جديدةٌ، فأكاد أُجنّ: ما هذا الذي يحصل لي، كنت علىٰ وشك الجنون، حتَّىٰ شاب شعر رأسي وأنا لازلتُ صغيرةً في العمر، فأنا دون سنّ الثلاثين.

فوالله لقد هزلت أكثر، وأصبحتُ أحسد أيَّ شخصٍ مُؤْمنٍ، حتىٰ إني كنت أحسد الخادمة بسبب إيمانها.

فساءت حالتي حتىٰ تركتُ دار التحفيظ، فازْدادت علي الوساوس، فقلت: لابدّ أنْ أملأ فراغي، فقد أيْقنت أنَّ الفراغ سببٌ رئيسيّ لكثرة وساوسي، فسعيت في الوظيفة حتىٰ توظفت معلمةً في مدرسةٍ خاصةٍ، ولكن ما لبثتُ فصلاً واحدًا حتىٰ تركت وظيفتي!!

وبعد تركي للوظيفة بِمُدّةٍ قرّرت أنْ أبحث عن شخصٍ يجيب عن أسئلتي، فذهبت إلىٰ مواقع التواصل فوجدت الكثير من المشايخ الذين يردُّون علىٰ الشبهات، فأسْتَمِعُ إلىٰ رُدودِهم ونقاشهم، فسُررت لأني سأُصبح مؤمنة، لكن كان كلامهم لي مجرد جرعةٍ وتزول بعد الانتهاء من النقاش، فكنت أبكي من الألم، وشوقًا لأن أكون مسلمةً..

فأنا في ضيق وهمّ واكتئاب..

لقد كرهتُ نفسي وكرهتُ الناس!

كنتُ أتساءلُ وأقول: لو مِتُّ وظهر أنَّ القرآن حقٌّ، والرسول حقٌّ، وتبيّن أنه هناك بعثٌ وحساب بعد الموت، من سيعصمني من عذاب الله تعالىٰ؟

أمضيتُ سنتين كاملتين وأنا معذَّبةٌ بالأفكار الإلحاديّة، ولكن لم أيأس! فقد رجعت إلىٰ مشايخ آخرين لِمُناقشتهم، كي يُقنعوني ويُرجعون لي إيماني ويُخرجون من قلبي تلك الشبهات التي كادت تُقطع نِياط قلبي، فناقشت أحدهم، ولكن نفس

الأول: جرعة وتنتهي!

أحسست- والعياذ بالله- أنّ الله يكرهني، وأنه ليس براضٍ أن أكون مسلمة! حتىٰ -وأعوذ بالله- شعرت بكرهٍ له تعالىٰ، لِمَاذا تفعل بي كلّ هذا؟ أنت سببُ كفري! لقد جاهدْتُ سنتين ولم أر الهداية! حتىٰ تلفظت بألفاظ وعبارات كفرية أشد وأفظع!

لكن بعدها بساعات أذهب إلىٰ غرفتي لوحدي فأبكي وأقول: يا رب أنا أحبك، وأنت تعلم أنّ هذا الكلام ليس من قلبي.

وبالرغم من هذه الأفكار الإلحاديّة كنت أُجاهد نفسي وأُصلي وأصوم وأحج، ولكن بدون لذة.

فدخلت موقع التواصل -تويتر- كثيرًا، وقرأت عن الرد علىٰ الشبهات، حتىٰ عثرتُ علىٰ مقالٍ للشيخ أحمد الطيار مع طالبٍ في المرحلةِ الثانوية.

قرأت أسئلةَ الطالب التي يسألها للشيخ، ورد الشيخ، ففرحتُ كثيرًا وشعرتُ بارتياح، فبحثتُ عن رقم الشيخ من نفس المقال؛ لأنّ عندي أسئلةً أُخرىٰ، فاتّصلتُ عليه ورَدّ بصدر رحب، وذكرت له كل ما أشكل علي وأجاب عليه، فأراحني كثيرًا والحمد لله، وكأني قد وُلدّت من جديد.

وطلب مني بعد الأخذ والردّ أنْ أُسلم، فقلت له: أمهلني أُسبوعين، حتىٰ أتأكد من قلبي، فقررت خلال يومين أن أُسلم، وقلت: لقد قامت علي الحجة، فلابد أن أُقرّر الآن: يا إيمان أو إلحاد! فما هو إلا أنْ أعلنت إسلامي للشيخ:

[أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله].

شعرت بعدها أني وُلدْتُ من جديد، وسجّلت تاريخ إسلامي منذ نطقي بالشهادة.

وها أنا أوجه نصيحةً ونداءً عاجلاً لكل إنسان:

الإلحاد والله ضياعٌ، فالْمُلْحِدُ كأنه بهيمة، يسير بدون هدف.

فكرّت كثيرًا: الله تعالىٰ خلقنا لهدف، ليس عبثًا، ومردُّنا إلىٰ الله.

كانت تَمُرُّ عليّ كثيرٌ من الليالي التي فيها أبكي من الهموم..

لم يكن أحدٌ يعلم بإلحادي إلا والدي، فقد ناداني مرّةً، فلما جئت إليه قال لي بحرقةٍ وألم: يا ابنتي، لا أُريد أن ندخل الجنة جميعًا وتدخلي أنتِ النار!!

يا الله!! أبكتني هذه الكلمة دمًا بدل الدمع، فأنا مُتَعلقةٌ بأهلي، ولا أُطيق فِرَاقهم، وأريد أن أراهم في الدنيا والآخرة.

وأقول أخيرًا: الإيمان راحة بال، وتعرف به هدفك في الحياة..

أنا الآن أحس بدنيا جديدة، الحمد لله، أنا مع الله، ادعوا لي بالثبات.

وفي نهاية هذه القصة الطويلة مع هذه الفتاة التي عاشت مرارة الحيرة والشك والإلحاد، ثم ذاقت حلاوة الإيمان والطُّمأنينة والسعادة والراحة تحت ظِلال العقيدة الصحيحة، والفطرة السّليمة..

إنها رسالةٌ لكلّ عاقلٍ ألا ينجرف وراء المواقع المشبوهة، والأفكار الْمُضلِّلة.

إنّ الإيمان هو أول وأهم أسباب استقرار النفس البشرية، وبدونه لا تُطيقُ النفس المكث في البدن، فإذا لم يقم صاحبها بإشغالها باللذات الدنيويّة، من خمر وسفر وضحك، وإلا فسوف تدعوه إلىٰ الانتحار، كما فعل آلاف الحيارىٰ.

وهذه القصة ذكرتُها دون زيادة أو نقصان، سوىٰ بعض التصرّفات اليسيرة، والشواهد التي ذكرتها لها، فأثبتها من مصادرها، ونقلتُ كلامها من اللهجةِ العاميّة إلىٰ اللغة العربية.

مُلْحدٌ عنيف

اتصل عليّ رجل يجحد القرآن والإسلام، وسرد عليّ بعض الشُّبه السخيفة، وكان أسلوبه في غاية الحدّة والعنف، وجعل ينتقصني ويهزأ بما كتبت في موضوع حوار الملحدين، فألهمني الله الحلم والرفق، ولم أردّ علىٰ قلة أدبه وتهكّمه، بل قلت له: دعني أجيبك علىٰ الشبهة التي طرحتها، فجعلت أبيّن له خطأ فهمه، وأوضحت له الحق بأسلوب تقبّله وانشرح صدره له، لكنه لازال علىٰ إصراره أن القرآن ليس كلام الله وأن فيه أخطاءً علميّة.

فقلت له:

أريد منك ثلاثة أمور:

١- أنْ تقرأ القرآن بنيّة الهداية.

٢- أن تدعو الله بصدق أن يهديك للحق.

٣- أنْ تُزيل من قلبك الكبر والاستعلاء.

فاتصل عليّ بعد يومين وقال: لقد هداني الله بعد طول إعراض وجحود.

ووجدت الأمن والراحة بعد طول همّ وضيق.

ولو مكثتُ شهرًا علىٰ هذه الحالة لانْتحرت من الهمّ والضيق والحيرة.

ولقد تأملت في الآيات التي كنتُ أراها دالّةً علىٰ نقْصِ القرآن فإذا بي أراها دالّةً

علىٰ إعجازِه وكماله.

ولقد تعجّبت مليًّا من جحودي له مع وضوحه وكماله وإعجازه.

فقلت: لأنك كنت حينها متكبّرًا فصرف الله عنك فهم كتابه والإيمان به، قال الله تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ﴾.

فتأمل كيف هدىٰ الله هذا الكافر الجاحد لكتابه ودينه في يومين فقط، حينما صدق مع الله ودعاه وطلب منه الهداية وطهّر قلبه من الكبر والعُجب.

فوالله لو دعا الله مَن ابتُلي بشبهة أو معصية وصدقَ معه وطهَّر قلبه من الكبر والعُجب لهداه للحق، وصرف عنه السوء والفحشاء.

تأملات في حال الملحدين والمشكّكين

إنّ هذه القصص التي دارت بيني وبين ملحد أو مشكّك حائر: ما هي إلا نزْرٌ يسير من قصص أخرىٰ، ويتضح من خلالها غياب النظر الصحيح للإسلام ومحاسنه، وكميّةَ الشّبَه التي حجبتهم عن رؤية الحق والصواب.

ولقد تأملت في حالهم خلال نقاشي معهم فوجدتهم يتفقون في أمرين:

الأمر الأول: ضحالةُ علمهم، ورداءةُ عقولهم وفهمهم، وضعفُ حججهم وسخافتها.. فهم لا يملكون حجة.. بل غُرست فيهم شبهة، ولا يُجيدون مهارة التفكير السليم..

الأمر الثاني: الحدّة والعنف والهجوم وقلة الأدب، وهذا بسبب شدّة الحيرة في نفوسهم، وعِظَم الكبر والغرور والعُجب في قلوبهم، فهم يرون أنهم أصحاب العقل الصحيح، والنظر الثاقب، والانفتاح والحرية وعدم التقليد، وأما غيرهم فهم تحت أسْر وسْجن التقليد واتّباع الآباء والأجداد، ولا يفقهون ولا يعقلون، فلذلك يزدرون الناس ويحتقرونهم، ويظهر هذا عند النقاش والحوار، فتجد في كلامهم رائحة الاستعلاء والكبر والاعتداد بالنفس، واحتقار من يُخالفهم.

ولا أنسىٰ كلامًا قاله لي أحد هؤلاء حينما دار نقاشٌ بيني وبينه: إنني أرىٰ المسلم المستقيم علىٰ دينه حقيرًا وضعيفًا، وأرىٰ أنني أنا العاقل المتحرر من التقليد والاستسلام لدين الآباء والأجداد..

وبعد زوال الشّبه التي استولت علىٰ قلبه، وأذعن للحق الذي أكرمني بإيضاحه له قال لي: كم أنت ومن عافاه الله من عفَن تلك الشّبه الزائفة محظوظون، حيث تعيشون في طمأنينة تامّة، لا تُساوركم الشكوك التي تُقطّع نياط القلب، ولا تتسلل إلىٰ نفوسكم عقائد باطلة تُخالف الفطر السليمة، فلقد عشت أيامًا يكاد عقلي يطيش، وفكرت في الانتحار..

وهكذا قالت لي امرأة: إنني حاولت الانتحار أكثر من مرة، بسبب الضيق الذي أعيش به، وبعد أن هداها الله بعد طول حوار ونقاش قالت لي بعد مدة من الزمن: لقد استراح فؤادي، واطمأن قلبي، فأنا أعيش مع القرآن بروح هادئة، وبال مرتاح، فلقد كانت تلك الشّبه كالخنجر يطعنني كلّ يوم!

وبعد أن سردت لك تلك القصص التي تبيّن لك ضعف حجج الملحدين والمشككين، وأنّ الحقّ حينما ظهر لهم بصورة واضحة أذعنوا له، وانقادوا له: سأذكر لك الأدلة العقلية علىٰ صحة دين الإسلام والقرآن والنبيّ محمد صلىٰ الله عليه وسلم، فلا يبقىٰ في قلبك ذرّةُ شكّ إن شاء الله تعالىٰ.

فأعطني عقلك بتجرّد، وليكن دافعك طلبَ الحقّ، وستصل إليه إن شاء الله تعالىٰ.

الأدلةُ العقليّة على وجود الله تعالى وصدق القرآن ورسول الأنام، عليه الصلاة والسلام

"لو أن سيارة تسير في الطريق لوحدها بغير قائد وبدون أي جهازِ تحكّم، فهي تسير تلقائيًا، فتأخذ الركاب وتنقلهم إلىٰ مدينة أخرىٰ، فتنزلهم وتحمل غيرهم، وتقوم بالاعتناء بنفسها، وتصلح العطل الآلي، وتركب القطعة بنفسها؛ فهل يعقل هذا أم أن الجواب المتفق عليه عند جميع العقلاء أن هذا ممتنع ولا يمكن حصوله؛ لأنه قد اتفقت كلمة العقلاء علىٰ أنه لابد لكل سبب من مسبب، ولكل مفعول من فاعل، وبعبارة أخرىٰ: لابد للحدث من محدث.

مثال آخر: ها أنت قد دخلت غرفتك فوجدت فيها حاسوبًا يعمل عملاً متقنًا، فهل يعقل أن هذا الجهاز قد صنع نفسه بنفسه؟ هل يصدق عاقل أن هذا الحاسوب قد ركب كل هذه الأجهزة الدقيقة من تلقاء نفسه دون أن يكون ذلك بفعل فاعل؟! لا يمكن، و إن جحد جاحد وقال: يمكن، فهذه مكابرة ولا مجال للكلام مع من يخالف ما اتفق عليه عقلاء الناس؛ لأنه ليس في عِدادهم في هذه الحالة.

فإذا أقر أن هذا غير ممكن فيقال:

انظر في هذا النظام الكوني المتناهي في الدقة الذي هو غاية في التنظيم، انظر إلىٰ الشمس كيف تشرق من المشرق وتغرب من المغرب من آلاف السنين بنظام دقيق

لا تحيد عنه.

وهي السبب في استمرار الحياة علىٰ الأرض، فكل الكائنات الحية تحتاجها؛ لأن منها النور والضياء الذي لا غنىٰ للحياة عنها، سواء كان ذلك في النباتات أو في الحيوانات أو في الإنسان.

انظر إلىٰ بدنك، وانظر إلىٰ التركيب المتناهي في الدقة.

انظر إلىٰ أجهزة جسمك، سواء الجهاز العصبي أو الجهاز الهضمي مثلا، وانظر إلىٰ كيفية عمل هذه الأجهزة بتناسق كامل، فها هو الطعام يدخل فيهضم، ثم بعد ذلك يتصرف منه الفضلات فتخرج من محلها المناسب.

انظر إلىٰ الكائنات الحية الموجودة في بدن الإنسان والتي توفر له الاستمرار في الحياة، سواء كان ذلك في كريات الدم البيضاء ووظيفتها الدفاع عن البدن، والتي يحوي منها الإنسان ما لا يحصىٰ عدداً في بدنه، وكيف أنها تنتج تلقائيـًا.

انظر إلىٰ القلب وكيف أنه هو المضخة لهذا الدم الذي لو توقف لدقيقة واحدة لمات الإنسان، وهو يعمل تلقائيـًا في بدنه.

انظر إلىٰ الجهاز العصبي الذي يعطي الإشارات والرسالات لسائر البدن للقيام بوظائفها.

انظر إلىٰ عينيك كيف يقع عليها الضوء، فتنعكس إلىٰ مرحلة حتىٰ تصل إلىٰ محلها من الجهاز العصبي لتحصل الصورة في عينك، وكذلك إلىٰ جهازك السمعي الذي تسير فيه الأمواج الصوتية لتقرع طبلة أذنك حتىٰ تتحلل بعد ذلك في الجهاز

العصبي إلىٰ أصوات مفهومة مسموعة لك.

أكل ذلك وقع صدفة وبغير فعل فاعل؟! فإذا كنت تُقر أن جهاز الحاسوب الذي لا يستطيع أن يخدم نفسه بنفسه إلا أن يحركه محرك، أنه لا يمكن أن يوجد إلا بفعل فاعل، فهذا الإنسان لا يمكن أن يكون كذلك إلا بفعل فاعل، وهذه السموات التي فيها الملايين من الأفلاك والمجرات والأبراج كلها تدور في نظام محكم دقيق، لو حاد شيئًا ما ولو يسيراً لتدمرت الأرض ولزالت من أساسها ولذهبت الحياة واندثرت، ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر:٤١]، أكل ذلك أيضـًا بغير فعل فاعل؟!!

وإليك دليل آخر:

لو سأل سائل..

كيف وجدت الحياة في الأرض؟ كيف وجد العالم أصلاً من سمائه وأرضه بما فيه من أفلاك ومجرات؟ فإن قيل: من الخلية الأولىٰ كما هي النظرية (الدارونية)، نظرية الإلحاد، وهي نظرية (النشوء والارتقاء)، فالجواب: فمن أوجد الخلية الأولىٰ؟ فإنه سيعجز؛ لأن الخلية الأولىٰ لابد لها من موجد أيضـًا، وإلا لأدىٰ إلىٰ التسلسل إلىٰ ما لا نهاية، وهذا قد اتفق عامة العقلاء علىٰ نفيه، ولذلك كان (دارون) نفسه مقرّاً في آخر حياته بأن نظريته تقوم عليها أسئلة لا يستطيع الإجابة عنها، وهذا هو السؤال الأعظم الذي عجزوا عن الإجابة عنه، وغاية ما عندهم أن الدنيا تكونت (صدفة) وحصل انفجار هائل.

والجواب: هذه الأجسام التي انفجرت من أوجدها حتىٰ تكونت؟ وهل يُعقل أن تنفجر فيحصل مثل هذا النظام الدقيق المتناهي في الدقة، وتحصل الحياة علىٰ نمط واحد، وعلىٰ صورة متكافئة يخدم بعضها بعضاً دون مُوجد؟!

هذا ممتنع لدىٰ عامة العقلاء، ولذلك فمن جحد مثل هذه الأدلة، فإنما يكابر ويتجاهل تجاهل العارف الذي يعرف يقيناً صحة ما يقال، ولكنه ينكر ذلك استكباراً وبغياً.

فهذه حجة ظاهرة عقلية لا يدفعها إلا جاحد مستكبر، وقد سيقت لك سوقاً وسطاً، وإلا فالأمر أجل وأبسط من هذا الأمر".(١)

(١) - إسلام ويب: رقم الإستشارة: ١١٠٧٥٠ بتصرف يسير.

عظمة القرآن وإعجازه وبلاغته

أما الحديث عن عظمة هذا القرآن الذي بين أيدينا، وإعجازِه وبلاغتِه، فلا يُمكن إحصاؤه، ولا الإتيان علىٰ عشر معشار ذلك.

ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

القرآنُ الكريمُ: هو النورُ الذي عدّل الموازين، وصحّح المفاهيم، فحطم كِيان الوثنية، وأزال ما في قلوب الكافرين من الحمية الجاهلية، وأيقظَ العقول السادرة، ونبّه القلوب الغافلة، وأحيا الضمائر الميتة، وسار بالإنسان نحو الفطرة السوية.

والدلائل العقلية علىٰ أنّ القرآن الكريم كلامُ الله الحق كثيرة جدًّا، وأُلِّفَت فيها مؤلفات كثيرة، وسأذكر منها دليلين فقط؛ ليكونا حجةً علىٰ الضالّين، وزادًا للمؤمنين:

أولًا: هل يستطيع محمد صلىٰ الله عليه وسلم أن يتنبأ بنتيجة معركة حربية تدور بين قوتين عظيمتين ستحدث بعد سبع أو ثمانِ سنين، بل ويحدّد من سينتصر فيها!

وما الذي يجعله يدخل في قضية خطيرة كهذه، والتي لو حصل خلافُ ما أخبر به لانفضّ عنه كلّ من آمَن به، وكان محلّ سخرية وتهجّم من أعدائه؟

ماذا كان يمكن أنْ يحدث للإسلام كلّه لو لم يصدّقه القرآنُ في كلّ حرف قاله؟

لا يمكن لعاقل أنْ يفعل هذا.

وإنما فعله النبيّ صلىٰ الله عليه وسلم لأنّ وحي السماء أَخْبَرَه بما سيكون في

الأرض، ووحي السماء لا يدخله الكذب.

قال تعالىٰ: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾.

فهذه الآية من الآيات الواضحةِ الشاهدة علىٰ صحة النبوّة، وأن القرآن من عند الله؛ لأنها إخبارٌ عن أمرٍ في المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله.

ثانيًا: أنّ النبيّ صلىٰ الله عليه وسلم قد نشأ وعاش في مكة، وترعرع فيها، ولم يكن فيها مدارس لتعليم القِيَم والآداب والأخلاق، وتعليم سياسة الدول والأسر، والأنظمة الكاملة في حسن التعامل مع العدو والصديق والزوج والوالدين والجار.

ولم يكن – قبل نزول القرآن عليه – معروفًا بمزيد نبوغ وتميّز في الفصاحة والبلاغة والبيان، بل هو مثلُ غيره، لا يفْضلهم في شيء من ذلك.

وقد حُفظت لبعض العرب أشعار وحِكَم وأقوال سارت بها الركبان، وتناقلها الناس علىٰ مرّ الأزمان، ولا زال الناس يستشهدون بها، وبعضهم لم يتجاوز سنُّه الثلاثين، فمن شعرائهم:

١- طرَفة بن العبد، وقد مات ولم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره، ومن جميل شعره:

ستُبدي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهِلاً ... ويأتِيكَ بالأخبارِ مَن لم تُزَوّدِ

ويَأتِيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تَبِعْ له ... بَتاتـًا، ولم تَضْرِبْ له وقْتَ مَوعِدِ

وقد روىٰ الإمام أحمد[١] عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم إذا استراث الخبر تمثل فيه ببيت طرفة:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود.

٢- زهير بن أبي سلمىٰ، ومن جميل شعره:

وَمَن لا يُصانِع في أُمورٍ كَثيرَةٍ ... يُضَرَّس بِأَنيابٍ وَيوطَأ بِمَنسِمِ

وَمَن يَكُ ذا فَضلٍ فَيَبخَل بِفَضلِهِ... عَلىٰ قَومِهِ يُستَغنَ عَنهُ وَيُذمَمِ

٣- عنترة بن شداد، ومن جميل شعره:

لا يَحمِلُ الحِقدَ مَن تَعلو بِهِ الرُّتَبُ... وَلا يَنالُ العُلا مَن طَبعُهُ الغَضَبُ

٤- لبيد بن ربيعة، ومن جميل شعره:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يوما أنْ تُردَ الودائعُ

وقال:

ألا كل شيء ما خلا اللهَ باطلُ.. وكلّ نعيمٍ لا محالة زائلُ

حتىٰ إنّ النبيّ صلىٰ الله عليه وسلم قال: "أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا اللهَ باطلُ"[٢].

---

(١) - (٢٤٠٢٣) قال محققوه: حديث حسن لغير.

(٢) - رواه البخاري (٣٦٢٨) ومسلم (٢٢٥٦).

٥- أميّة بن أبي الصلت، ومن جميل شعره:

فكلُّ معمّر لا بدّ يومـًا ... وذي دنيا يصيرُ إلىٰ زوال

ويفْنَىٰ بعد جدته ويبلىٰ ... سوىٰ الباقي المقدّس ذي الجلالِ

وسيقَ المجرمون وهم عراة ... إلىٰ ذات المقامع والنَّكالِ

فنادوا ويْلنا ويلاً طويلاً ... وعجُّوا في سلاسلها الطّوالِ

فليسوا ميتين فيستريحوا ... وكلهمُ بحَرِّ النّار صالي

وحلّ المتّقون بدار صدق ... وعيش ناعمٍ تحت الظّلال

لهم ما يشتهون وما تمنّا ... من الأفراح فيها والكمالِ

وقد قال النبيّ صلىٰ الله عليه وسلم عنه: "كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم"(١).

أي: قارب الإسلام في شعره المشعِر بإيمانه، ولإيمانه بالبعث في الجاهلية، ولكنه لم يسلم.

وقال الشريد رضي الله عنه: «ردفت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يوما فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت: نعم، قال: هيه!(٢) فأنشدته بيتًا، فقال: هيه! ثم أنشدته بيتًا، فقال: هيه! حتىٰ أنشدته مائة بيت!».(٣)

٦- النابغة الذبياني، ومن جميل شعره:

---

(١) - رواه البخاري (٣٦٤٨) ومسلم (٢٢٥٦).

(٢) - أي: زدني.

(٣) - رواه مسلم (٢٢٥٥).

الرِّفقُ يُمنٌ وَالأَناةُ سَعادَةٌ ... فَتَأَنَّ في رِفقٍ تَنالُ نَجاحا

وَاليَأسُ مِمّا فاتَ يُعقِبُ راحَةً... وَلَرُبَّ مَطعَمَةٍ تَعودُ ذُباحا

ومن أبرز خطبائهم:

١- قس بن ساعدة، وهو القائل: «يا معشر إياد، أين ثمود وعاد، وأين الآباء والأجداد، أين المعروف الذي لم يُشكر، والظلم الذي لم يُنكر، أقسم قسّ قسما بالله، إنّ لله دينا هو أرضىٰ له من دينكم هذا».

٢- أكثم بن صيفي التميمي، ومن أقواله: "مقتل الرجل بين فكّيه".

٣- عامر بن الظرب العدواني، ومن أقواله: «الرأي نائم، والهوىٰ يقظان، فمن هنالك يغلب الهوىٰ الرأي».

٤- سحبان بن وائل، حتىٰ كانوا يقولون في مدح بلاغة الرجل: "أبلغ من سحبان بن وائل".

وأما النبيّ صلىٰ الله عليه وسلم فلم تُحفظ عنه جملة قالها فيها حكمة أو بلاغة قبل نزول القرآن..

وهذا من حكمة الله وتهيئة الأسباب لتقبّل عقول الناس له، وتصديقهم له.

فلو كان معروفًا بالبلاغة والفصاحة والبيان لقالوا: إنّ هذا القرآن من نظمه وكلامه، فقد عهدنا وشهدنا عليه أنّه قد تميّز من بيننا بذلك.

وإنما عُرف بصفتين، أجمع عليهما القريب والبعيد، وهما الصدق والأمانة؛ وذلك من حكمة الله؛ لأجل ألا يختلج في نفوس الناس أيّ شكّ فيما يقوله؛ فما

عهدنا عليه كذبا ولا خيانة.

فقد عاش أربعين عاما بينهم، يُشاهدُونَ رجاحةَ عقْلِه، وكمال أدبِه وعفّتِه، وصدقَ حديثِه، وعِظَم أمانتَه، ويُطالِعونَ غُرَّته الْبهيَّة.

ولم يسافر خارج الحجاز إلا مرتين إلىٰ الشام، صحبةَ عمّه، وكان لهدفٍ واحد، وهو التجارة.

فبينما هو معهم وبينهم إذ فجَأهم الصادقُ الأمينُ بخبَر غريب، ونبأ عجيب، وهو أنه رسولٌ من عند الله، وكان من البداهة أن يقْبَلوا خبره، ويصدّقوا كلامه، لأنه طيلة أربعين عامًا لم يكْذب كذبة، ولم يخُن أمانة، فهل من العقل أن يكْذب ويخون حين بلغ أشدّه، ونضج عقله؟!

وليس في طبيعة البشر إلىٰ يومنا هذا من كان طيلة أربعين عامًا علىٰ أكمل الصفات، وأتمّ الأخلاق، ثم ينحرف عنها بعد ذلك طواعيةً!

ومع هذا كله: تلا عليهم كلامًا يتميّز بأسلوب خرج عن مألوفهم، وبايَنَ الْمعهود بينهم، فليس علىٰ شاكلة الشعر ولا السجع ولا النّثر، وأساليب العرب قاطبة لا تخرج في كلامها عنها.

وانضم إلىٰ ذلك:

- أنه في نفسه في غاية البلاغة والفصاحة والبيان، وهذا أبْهرهم به، وحيّرهم فيه، وأعْجزهم عن الإتيان بمثله..

- ومشتمل علىٰ أكمل الشرائع وأحسن الأحكام، في النفوس، والعقول،

والسياسة، والأسرة، والمال، والعدل، والأخلاق، التي بها تتآلف القلوب، ويُقام العدل، وتزكو النفوس، وتقلّ الجرائم، ويُذاد عن المحارم.

ومع هذا كلّه كذّبوه وسبّوه وشتموه وآذوه!

فأين عقولهم عن تدبّر هذا؟

بين ليلة وضحاها يأتيهم بهذا الكلام المعجز العجيب، ويتحدّاهم جميعًا أن يأتوا بمثله، ويقرأ عليهم ما تعجز العقولُ عن إدراك كنْهه، وتجبنُ الحكماءُ عن مجاراة حكمه، ويخرسُ البلغاء عن الإتيان بمثل نظمه؟

أليست هذه معجزات توالَت عليهم، وآياتٌ باهرةٌ رأوها بأعينهم؟

وواحدة منها تكفي العاقل ليصدّق ويؤمن؟

ثم إنه صلىٰ الله عليه وسلم تحدّىٰ به العرب عامّتهم وخاصتهم، وشاعرهم وخطيبهم، بأن يأتوا بسورة من مثله، ولو كانت من قصارها، وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان، ويتفاخرون بذلك.

فكانوا إذا تحداهم أحدٌ بقصيدة أو خطبة انبرىٰ له الجمع الغفير من شعرائهم وبلغائهم ليُثبتوا في شعره أو نثْره الخلل والخطأ، ويأتوا بأحسن مما أتىٰ به.

فلم يجترؤوا علىٰ ذلك، وعدمُ اجترائهم علىٰ معارضة القرآن، مع كثرة مطالبتهم بذلك وتحدّيهم من أعظم الدلائل الواضحة، والبراهين الساطعة علىٰ أنّ ذلك ليس في مقدورهم، وأنّ أسلوبه وبلاغته في مرتبة عالية لم يصلوا إليها، ودرجةٍ شريفةٍ لم يقدروا علىٰ بلوغها.

"هذا والعرب كانوا أرباب هذا الشأن، وفرسان الكلام؛ فقد خُصّوا من البلاغة والحِكم بما لم يُخصّ به غيرهم من الأمم، وأوتوا من حذْق اللسان ما لم يُؤتَ إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيّد الألباب، وجعل الله لهم ذلك طبعًا وخِلقة، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه علىٰ البديهة بالعجب، ويُدْلون به إلىٰ كلّ سبب، فيخْطبُون بَديهًا في أيّ وقت، ويَرتَجِزون به متىٰ شاؤوا، ويَمدَحون ويَقدَحون، ويرفعون ويضعون؛ فيأتون من ذلك بالسِّحر الحلال، وما لا خطر علىٰ بال؛ فيَخدعون الألباب، ويذَلِّلون الصِّعاب، ويُصيِّرون الناقص كامِلا، ويتركون النّبيه خامِلا، منهم البدويّ ذو اللفظ الجَزْل، والقول الفصل، والكلام الفخم، والطبع الجوهري، والمنزع القويّ، ومنهم الحضريّ ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطَّبع السَّهل، والتصرّف في القول القليل الكلفة، الكثير الرَّونق، الرَّقيق الحاشية..

ولهم في البلاغة الحجّة البالغة، والقوّة الدامغة، لا يشُكُّون أن الكلام طوْع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قد حوَوْا فنونها واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وعَلَوْا صرحا لبلوغ أسبابها، فقالوا في الخطير والمهين، وتفنّنوا في الغثّ والسمين، وتقاولوا في القُلّ والكُثر، وتساجلوا في النظم والنثر..

فما راعهم إلا رسولٌ كريم بكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، أُحكمت آياته، وفصِّلت كلماته، وبَهَرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته كلّ مقول، وتظافر إيجازه وإعجازه، وتبارت في الحسن

مطالعه ومقاطعه، وحوَت كل البيان مجامعه وبدائعه، واعتدل مع إيجازه حسن نظمه، وانطبق علىٰ كثرة فوائده مختار لفظه، وهم - أي العرب - أفسح ما كانوا في هذا الباب مجالا، وأشهر في الخطابة رجالا، وأكثر في السجع والشعر سجالا، وأوسع في الغريب واللغة مقالا، بِلُغتهم التي بها يتحاورون، ومَنازِعهم التي عنها يتناضلون، صارِخًا بهم في كلّ حينٍ، ومقرّعًا لهم بضعًا وعشرين عامًا علىٰ رؤوس الملأ أجمعين:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحجارةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَات﴾.

ذلك أنّ المفترَىٰ أسهل، ووضعُ الباطل والمختلَق علىٰ الاختيار أقرب، واللفظُ إذا نبَع المعنىٰ الصحيحُ كان أصعبَ.

فلم يزل يقرّعهم صلىٰ الله عليه وسلم أشدّ التقريع، ويوبّخهم غاية التوبيخ، ويسفّه أحلامهم، ويحطّ أعلامهم، ويشتّت نظامهم، ويذمّ آلهتهم وإياهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كلّ هذا ناكصون عن معارضته، يخادعون أنفسهم بالتّشْغيب والتكذيب، والإغراء بالافتراء، والادّعاء مع العجز بقولهم: ﴿لَوْ

نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ وقد قال لهم الله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فما فعلوا ولا قدروا"[(١)]..

والعجيب أنه لم يتصدّ أحدٌ لهذا التحدّي، فيأتي بسورة قصيرة مثل القرآن، وقد بقي صلىٰ الله عليه وسلم يطالبهم به ويتحدّاهم مدة عشرين سنة، يُظهر لهم النكير، ويُزري علىٰ أديانهم، ويُسفّه آراءَهم وعقولهم، فما اجترأ واحدٌ منهم أن يقبل التحدي، بل جبُنوا عن ذلك، ولجؤوا إلىٰ حيلة العاجز، وهي السبّ والفحشُ في الأقوال والأفعال، وناصبوه الحرب والعداء، فآثروا حربهم وإراقة دمائهم وقطيعةَ أرحامهم، وذهاب أموالهم، علىٰ أمر أهون لو كان في مقدورهم، فهلكت فيه نفوسهم، وأُريقت مهجهم.

ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لَمَا تكلّفوا هذه الأمور الخطيرة، واضطروا لهذه المسالك الوعرة، ولَمَا تركوا السهل اليسير من القول إلىٰ الصعب الشاقّ من الفعل، وهذا ما لا يفعله عاقل، وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأَحلام، ووفْرة العقول والألباب، وقد كان فيهم دهاةُ الخطباء، وأعيان الشعراء.

وقد وصفهم الله تعالىٰ في كتابه بالجدل والخصام، فقال سبحانه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بل هُمْ قومٌ خَصِمون﴾، وقال سبحانه: ﴿وتُنذِرَ بِه قوما لُدًّا﴾.

فهل يُعقل أن يجبنوا عن قبول هذا التحدّي، ولا ينتهزوا الفرصة، ولا يحوزوا الفوز والنصر فيه، لولا عدم قدرتهم علىٰ ذلك، وعجز المانع منه.

---

(١) - الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ (١/ ٢٥٨- ٦١٢) مع شيء من التصرف اليسير.

ومن المعلوم أنّ رجلا عاقلا لو عطش عطشًا شديدا خاف منه الموت، وبحضرته ماء للشرب، فلم يشربه حتىٰ مات عطشًا، لأيقنا أنه عاجزٌ عن شربه غير قادر عليه..

فعُلم أنّ القوم إنما جبنوا عن معارضة القرآن لعلمهم ويقينهم أنهم لا يبلغون شأوه، وليس في وسعهم معارضته، فتركوا المعارضة لعجزهم، وأقبلوا علىٰ المحاربة لجهلهم، ﴿فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾ والحمد لله رب العالمين.(١)

"ولهذا قال الله تعالىٰ في آيات التحدي: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفتريَات وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فلم يكتف بعجز المدعوّين، بل أمرهم أن يدعوا إلىٰ معاونتهم كلّ من استطاعوا أن يدعوه من دون الله، وهذا تعجيز لجميع الخلق؛ الإنس، والجنّ، والملائكة.

وقال في سورةِ البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: ادعوا كلّ من يشهد لكم، فيوافقكم علىٰ أنّ هذا ليس من عند الله؛ ادعوا كل من لم يُقرّ بأنّ هذا منزّل من الله، فهذا تعجيزٌ لكل من لم يؤمن به، ومن آمن به وبقي في ريب"(٢).

والعجيب كذلك: أنه لم يتجرأ فصحاؤهم وبلغاؤهم طوال عشرين عامًا أن يذكروا خطأً في القرآن، أو عيبًا ونقصًا، ليقينهم أنّ ما جاء في القرآن من الكلام في

---

(١) – يُنظر: بيان إعجاز القرآن (٤١، ٣٥).

(٢) – تقريب تراث ابن تيمية المجموعة الخامسة (٣/ ٣٥) بتصرف يسير.

غاية الفصاحة والبلاغة والبيان.

فما تجرؤوا علىٰ عيب لفظه، بل كان جهدهم منصبًّا علىٰ عيب الذي أُوحي إليه – صلىٰ الله عليه وسلم – وعلىٰ تكذيب ما جاء به، واتهامه بأنه قول شاعر وكاهن، وهذا غاية جهد العاجز المنهزم.

متى نجزم بصحةِ الخبر؟

إنَّ كلَّ خبرٍ يُقطَع بصحته، إذا اجْتمعَ فيه أمران:

شهادةُ أهل الخبرة والاختصاص بصحته وصوابه.

ومجيئُه علىٰ الوصف الذي جاء الخبر به.

فأما شهادةُ أهل الخبرة بصحته وصوابه، فسيأتي الحديث عن شيءٍ منه عند الحديث عن شهادة بعض علماء وأطباءِ الغرب في نبينا محمد صلىٰ الله عليه وسلم.

وأما مجيئُه علىٰ الوصف الذي جاء الخبر به.

فهو أشهر من أنْ يُحصر، وأغنىٰ مِن أنْ يُذكَر، فكم هي الاكتشافاتُ العلميةُ، التي جاء بها القرآن قبل اكْتشافها، ونطق بها قبل اشْتهارها.

ويكفي أنْ نعلم بأنَّ كثيراً من علماء الغرب في الطِّبِّ والفَلَكِ، قد أسلموا وصدَّقوا بالقرآن الكريم، حين علموا أنْ ما اكتشفوه قد سبقهم به القرآن الكريم.

-عالم الجراحة الفرنسي: مُورِيْسْ بُوكاي.

من هو موريس بوكاي؟!

إنه شامة فرنسا ورمزها الوضَّاء..

فعندما طلبت فرنسا من دولة (مصر) عام: ١٩٨١م استضافة مومياء (فرعون مصر) إلىٰ فرنسا لإجراء اختبارات وفحوصات أثرية ومعالجة..

وتم نقله إلىٰ جناح خاص في مركز الآثار الفرنسي ، ليبدأ بعدها أكبر علماء الآثار

في فرنسا وأطباء الجراحة والتشريح دراسة تلك المومياء واكتشاف أسرارها، وكان رئيس الجراحين والمسؤول الأول عن دراسة هذه المومياء الفرعونية هو البروفيسور موريس بوكاي.

وتحيّر كيف بقيت هذه الجثة دون باقي الجثث الفرعونية المحنطة أكثر سلامة من غيرها، رغم أنها استخرجت من البحر..! كان موريس بوكاي يعد تقريراً نهائيا عما كان يعتقده اكتشافاً جديداً في انتشال جثة فرعون من البحر وتحنيطها بعد غرقه مباشرة ، حتىٰ همس أحدهم في أذنه قائلا لا تتعجل فإن المسلمين يتحدثون عن غرق هذه المومياء..

ولكنه استنكر بشدة هذا الخبر ، واستغربه ، فمثل هذا الاكتشاف لا يمكن معرفته إلا بتطور العلم الحديث وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدقة.

بينما كتابهم الإنجيل يتحدث عن غرق فرعون أثناء مطاردته لسيدنا موسىٰ عليه السلام دون أن يتعرض لمصير جثمانه البتة.. وأخذ يقول في نفسه : هل يعقل أن يكون هذا المحنط أمامي هو فرعون مصر الذي كان يطارد موسىٰ؟!

وهل يُعْقل أنْ يعرف محمدهم هذا قبل أكثر من ألف عام وأنا للتو أعرفه؟!

وحتىٰ الإنجيل لم يتحدث عن نجاة هذه الجثة وبقائها سليمة.

وقرر أن يسافر إلىٰ المملكة العربية السعودية لحضور مؤتمر طبي يتواجد فيه جمع من علماء التشريح المسلمين..

وهناك كان أول حديث تحدثه معهم عما اكتشفه من نجاة جثة فرعون بعد

الغرق.. فقام أحدهم وفتح له المصحف وأخذ يقرأ له قوله تعالىٰ: ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون﴾.

لقد كان وقع الآية عليه شديدا، فوقف أمام الحضور وصرخ بأعلىٰ صوته :"لقد دخلت الإسلام وآمنت بهذا القرآن".

ثم رجع إلىٰ فرنسا بغير الوجه الذىٰ ذهب به.. وهناك مكث عشر سنوات ليس لديه شغل يشغله سوىٰ دراسة مدىٰ تطابق الحقائق العلمية والمكتشفة حديثا مع القرآن الكريم ، والبحث عن تناقض علمي واحد مما يتحدث به القرآن ليخرج بعدها بنتيجة قوله تعالىٰ ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت :٤٣]

كان من ثمرة هذه السنوات التي قضاها الفرنسي موريس أن خرج بتأليف كتاب عن القرآن الكريم هز الدول الغربية قاطبة ورج علماءها رجا ، لقد كان عنوان الكتاب (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم.. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة).

وقد أُعيدتْ طباعته بمئات الآلاف، بعد أن ترجم من لغته الأصلية (الفرنسية) إلىٰ العربية والإنكليزية والأندونيسية والفارسية.

لينتشر بعدها في كل مكتبات الشرق والغرب.

صدق الله تعالىٰ ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً﴾.

تأمل قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

هذه الآية نقرأها كثيرًا ولا نجد لها تأثيرًا علينا، لكنها أثرت أثرًا بالغًا علىٰ أشهر علماء الغرب في علم الأجنَّة، وهو الطبيب الكندي البروفيسور كيث مور، صاحب الكتاب الشهير، «التطور الإنساني» الذي ترجم إلىٰ أكثر من ٢٥ لغة في العالم، وقد أعلن إسلامه في العام ١٩٨٠ بمجرد سماعه لهذه الآية، التي تتناول تكوين الجنين والإنسان، التي سبقت كل العلم والتكنولوجيا منذ قرون مضت.

حيث وجد أن هذه الآيات تطابق تمامًا العلم الحديث، فكانت هذه الآيات سببًا في إيمانه ورؤيته نور الحق.

-أحد القساوسة في مصر يحكي قصة إسلامه المؤثرة، كان يقول قبل أن يسلم ويتساءل: إذا كنتُ أنا أغفر للناس خطاياهم فمن يغفر لي؟ وإذا كنتُ أعطي للناس المغفرة علىٰ ذنوبهم، فمن يغفر لي؟ وبعد ذلك يقول: بينما كنتُ في طريقي إلىٰ السفر في أحد الباصات، إذ بغلام يأتي ويوزع كتيبات عن آيات من القرآن، وأعطاني واحداً منها.

وعلىٰ الفور فتحتُ الكتيب لأنظر ما فيه ووقع نظري علىٰ عبارة: ﴿قل هو الله أحد﴾!!! هذه العبارة غيرت حياتي فيما بعد! لقد أثرت فيّ منذ اللحظة الأولىٰ حتىٰ

إنني تركتُ السفر وعدتُ إلىٰ بيتي، وبقيتُ أفكر وأحاول الإجابة عن سؤال واحد: هل يوجد إله غير الله؟

وكانت هذه الآية سببًا في اعتناقي الإسلام.

وصدق الله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

فأَخْبَرَ أَنَّهُ يُرِي عِبادَهُ مِن الْآياتِ الْمَشْهُودةِ، الَّتِي هِي أدِلَّةٌ عَقلِيَّة، مَا يُبَيِّنُ أنَّ الْقُرآن حقٌّ.

ومن أمثلةِ مجيء القرآن علىٰ الوصف الذي أخبر به: أنه تحداهم بأن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك، بل وأخبر أنهم لن يأتوا بمثله.

وقد أثار حفيظتهم، واسْتثار همَّتهم لمعارضته في آياتٍ كثيرةٍ، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾.

"فكانَ يتحداهم بمثل هذه الآيات الصّادِعة التي تثير النخوة، وتهيّج الغيرة مع علوّ كعْبهم في البلاغة ورسوخ عرقهم في أساليبها وفنونها، في عصرٍ ارتقت فيه دولة الكلام ارتقاء لم تعرف مثله الأيام، حتىٰ كانوا يتبارون فيه ويتنافسون، ويباهون ويفاخرون، ويعقدون لذلك المجامع ويقيمون الأسواق، ثم يطيرون بأخبارها في الآفاق، ومع هذا لم يتصد أحد منهم للمعارضة، ولم ينْهض بليغ من مَصاقعهم إلىٰ

المناهضة.

بَلْ إنهم فضَّلوا القتال علىٰ القبول بهذا التحدِّي، وَرضوا بِسَفْكِ دمائِهم بأسيافهم، وتخريب بيوتهم بأيديهم، أفلم يكن الأجدر بِمَدَارِه[١] قريش وفحولها، أن يجتمعوا علىٰ تأليف سورة ببلاغتهم التي كانوا يتبارون فيها بسوق عكاظ وغيرها من مجامع مفاخراتهم، ويؤثروا هذا علىٰ سَوْق الخميس[٢] بعد الخميس من صناديدهم إلىٰ يثرب لقتال محمد صلىٰ الله عليه وسلم ومن آمن به رضي الله عنهم في بدر وأحد ووراء الخندق لو كان ذلك مستطاعًا لهم؟

ومثل هذا يقال في اليهود الذين كانوا بجواره في المدينة فأمنهم علىٰ دينهم وأموالهم وأعراضهم، فأبوا إلا إعانة مشركي قومه عليه حتىٰ اضطروه إلىٰ قتالهم، فلا شك أنّ الله تعالىٰ قد رفع هذا الكلام إلىٰ درجة لا يرتقي البشر إليها.

اللهُ أَكْبَرُ إنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... وَكِتابَهُ أَقْوَىٰ وأَقْومُ قِيلًا

لَا تَذْكُروا الْكُتُبَ السَّوالِفَ عِنْدهُ... طَلَع الصَّباحُ فأَطْفِئِ الْقِنْديلَا

والعجيب أننا نجده لم يلتزم شيئًا مما كانوا يلتزمون بسجعهم وإرسالهم ورجزهم وأشعارهم، بل جاء علىٰ النمط الفطري، والأسلوب العادي الذي يتسنىٰ

---

(١) - المِدْرهُ: زعِيم الْقَوم وخَطيبهم والمتكلِّمُ عنهم والَّذي يرجعُونَ إلىٰ رأيه، والْميمُ زائِدةٌ، والْجمعُ الْمَداره.

لسان العرب (١٣/ ٤٨٨)

(٢) - يعني الجيش.

لكلّ إنسان أن يحذو مثاله، ولكنهم عجزوا فلم يأتوا ولن يأتي غيرهم بسورة من مثله.

ثم نلاحظ أيضا: أنّ القرآن بهذا الأسلوب قد تحدّىٰ به كلّ من بلغه من العرب، علىٰ تفرق ديارهم، وتنائي أقطارهم، وأرسل الرسول إلىٰ الأطراف يدعو الناس إلىٰ الإيمان به، فعمّت الدعوة وبلغت مبلغها، ولم ينبر أحد للمعارضة، ألا يدل هذا علىٰ نهاية العجز وعمومه، وإحساس كل بليغ بالضعف في نفسه عن الانبراء لمباراته، والتسامي لمحاكاته، وعلىٰ أن الله تعالىٰ جعله فوق القدر، خارقا لما يعتاد من كسب البشر؟ بلىٰ.

وإن لهذا الإعجاز وجهين:

أحدهما: كونه معجزا بذاته؛ لأنه في مرتبةٍ لا يمكن لبشر أن يرتقي إليها.

وثانيهما: أنه جاء علىٰ لسان أمي لبث أربعين سنة لم يوصف بالبلاغة، ولم يؤثر عنه شيء من العلم."[(١)]

فهل يبقىٰ لأحدٍ له ذرَّةُ عقلٍ، يرىٰ دلائلَ إعجازِ القرآن طافحةً مُسْتفيضة، ويرىٰ كثيراً من زعماء وعلماء الغرب والشرق، يُذعنون ويُؤمنون به، ثم لا يزال هو في ريبٍ ممّا جاء به القرآنُ، من وعيدٍ وتحذير للمكذبين والمذنبين؟

إنّ هذا القرآن الكريمُ جاء فيه التحذيرُ من عذابٍ أليمٍ للمكذبين، وتوَعُّد بالنيران للمذنبين والظالمين، فكيف لعاقلٍ يرىٰ مثل هذه الدلائل الواضحة العظيمة، ثم

---

(١) - تفسير المنار ١/ ٢٠٣-٢٠٤ بتصرف يسير.

يستمر في غيِّه وضلاله؟

وهو مَحفوظٌ بحفظ الله تعالىٰ له، منذ أنْ تكلّم به ربّ العزة والجلال إلىٰ وقتنا، لم يتغيّر منه حرفٌ واحد.

ومِمَّا يزيد القلب يقينًا وإيمانًا، ما عثرت عليه جامعة برمنجهام في بريطانيا من نسخةٍ للقرآن الكريم يُعتقد أنها الأقدم علىٰ الإطلاق.

واختبرت المخطوطة التي يبلغ عمرها ١٣٧٠ سنة في مختبر جامعة أُوكسفورد، وأظهرت النتائج أنها كتبت علىٰ جلد الغنم، أو الماعز... ويحدد هذا الفحص عمر المخطوط بنسبة دقة تصل إلىٰ ٩٥ في المئة، ويشير إلىٰ أن النص الموجود علىٰ هذه الجلود يعود تاريخ كتابته إلىٰ الفترة ما بين ٥٦٨ و٦٤٥ ميلادي.

يقول البروفسور ديفيد توماس، الأستاذ المختص في المسيحية والإسلام: إن "هذه النصوص قد تعيدنا إلىٰ السنوات الأولىٰ من صدر الإسلام.. إذ تشير السيرة النبوية إلىٰ أن الوحي أنزل، علىٰ الرسول محمد، بين ٦١٠ و٦٣٢ ميلادي، وهو تاريخ وفاته".

ويضيف البروفيسور توماس أن "العمر التقديري لمخطوط برمنغهام يعني أنه من المحتمل جدا أن كاتبه قد عاش في زمن النبي محمد".

وأكمل "أن الشخص الذي كتب هذه الصفحات لابد أنه عرف النبي محمد، وربما رآه واستمع إلىٰ حديثه، وربما كان مقربا منه، وهذا ما يستحضره هذا المخطوط".

وأشار إلىٰ أن "هذه الأجزاء من القرآن التي كتبت علىٰ هذه الرقائق، يمكن، وبدرجة من الثقة، إعادة تاريخها إلىٰ أقل من عقدين بعد وفاة النبي محمد".

وأضاف: "أن هذه الصفحات قريبة جدا من القرآن الذي نقرأه اليوم، وهو ما يدعم فكرة أن القرآن لم يعرف إلا تغييرا طفيفا، أو أنه لم يطرأ عليه أي تغيير(١)، ويمكن إعادة تاريخها إلىٰ لحظة زمنية قريبة جدا من الزمن الذي يعتقد بنزوله فيه".

وبقيت صفحات القرآن الكريم غير مكتشفة لمدة عقد من الزمن تقريبا إلىٰ أن اختارت باحثة تجري رسالة الدكتوراه إجراء اختبار الكربون المشع علىٰ المخطوطة للتعرف عليها أكثر وكانت النتائج مذهلة.(٢)

ونحن لا نحتاج إلىٰ مثل هذه الحقائق، فإن ما عندنا من الحقائق القطعية الأخرىٰ أكبر وأكثر من هذا، ولكن نستأنس بهذه المخطوطة التي تُثبت أن هذا القرآن الذي بين أيدينا لم يتغير منذ نزوله إلىٰ يومنا.

وهذا القرآن العظيم قاد كثيرًا من الكفار إلىٰ الإيمان به، حينما تأملوا فيه وفي بلاغته وإعجازِه، وفيما

---

(١) – وهو الصواب بلا مرية.

(٢) – نُشر الخبر في مواقع كثيرة، منها صحيفة: بي بي سي، بتاريخ: ٢٢ يوليو/ تموز ٢٠١٥، وجريدة الرياض، يوم الأربعاء: ٦شوال ١٤٣٦، عدد: ١٧١٩٤.

ماذا غيّر القرآن في أهلِه، وكيف كانت حياة الناس قبله؟

لقد كانت حياة قريش قبل الإسلام منحصرةً في أمور تافهة أو عادية، فهمّتُهم وغاية الواحد منهم في تحصيل الطعام والشراب والمسكن، والمنافسة في الشرف والزعامة، واللهو واللعب، والفخر والسفر والنكاح..

ولهم اجتماعات في أماكن معيّنة، منحصرة في البيع والشراء، والفخر والهجاء، والنقاش وتبادل الآراء..

يُصبحون ويُمسون بلا هدف واضح، ولا منهج ديني أو دنيوي يسيرون عليه، إن هم إلا كالأنعام، تعيش لتأكل وتشرب وتنام وتنكح..

وهل تخيلت حال محمد بن عبد الله صلىٰ الله عليه وسلم وحال أصحابه بدون القرآن؟

أريدك أن تعيش بخيالك حالهم لو لم ينزل القرآن، ولو أنّ مؤرخًا عاش في زمانهم وكتب عنهم لقال:

كانت مكةُ تزخر برجالها، ومن بينهم:

١- محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وكان فيما سمعتُ ورأيتُ صاحبَ خلق وأدب، وكان صادقًا أمينًا، لا يشرب الخمر، ولا يعبد الأوثان، وكان يحبّ العزلة، وتزوّج وأنجب، ثم مات بعدما تجاوز سنّ الستين.

وقد ذكر الله حاله قبل نزول القرآن فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾.

٢- أبو بكر بن قحافة، كان تاجراً، وكان هيّنًا ليّنًا.

٣- عمر بن الخطاب، كان عنيفًا قويًّا، وكان يشارك قومه في الغزو ويُنافسهم في الزعامة.

٤- عبد الله بن مسعود، كان يرعىٰ غنم قريش، وكان نحيفًا فقيرًا.

وهكذا بقية أصحابه من المهاجرين والأنصار، لا تتجاوز سيرتهم بضعة أسطر، حيث لم يكن لهم ذكر حسن إلا في أمور يسيرة، وجلّهم لن يُذكر أصلاً ولن يُعرف.

ولو جُمعت سيرهم – بتقدير عدم نزول القرآن – لما بلغت بضع صفحات فقط.

فماذا أصبحوا بعد نزوله؟

أصبحوا كنجوم السماء جمالاً ونفعًا، وكالشمس نورًا وحياةً، وكالقمر ضياءً وبهاء، ولقد بلغت الكتب التي جُمعت فيها أقوالهم وأخلاقهم وسيرهم، والكتب التي تفرّعت عنها: عشرات الآلاف، وامتلأت الدنيا منذ أربعة عشر قرنًا إلىٰ يومنا هذا بذكرهم وذكر مآثرهم وأقوالهم وأخلاقهم وشمائلهم وفقههم وحديثهم وجهادهم وعباداتهم.

مشوا علىٰ الأرض فطهروها من رجس الأوثان، وسرت مآثرهم إلىٰ القلوب فامتلأت بالإيمان.

أليس هذا دليلا كافيًا واضحًا في صدق هذا النبيّ الكريم، والقرآن العظيم؟

بلىٰ والله..

وأما نبيّنا محمد صلىٰ الله عليه وسلم فقد كانت حياته قبل القرآن مثل حياة باقي أهل بلده، إلا في أمور يسيرة عصمه الله منها، كعبادة الأصنام، وشرب الخمر، وكشف العورة..

ومما يدلك علىٰ أنّ حياته قبل القرآن مثل حياة باقي أهل بلده أنّ قومه كانت لهم عادة قبيحة، وهي كشف العورة أحيانًا، فقد ثبت في الصحيحين أنه لما بنيت الكعبة ذهب النبي صلىٰ الله عليه وسلم والعباس -رضي الله عنه- ينقلان حجارة، فقال العباس للنبي صلىٰ الله عليه وسلم: اجعل إزارك علىٰ عاتقك من الحجارة، ففعل، فخرّ إلىٰ الأرض، وطمحَت عيناه إلىٰ السماء، ثم قام، فقال: إزاري إزاري، فشد عليه إزاره».(١)

فقد عزم علىٰ كشف عورته حينما كان ينقل الحصىٰ، لولا عناية الله له.

فغيّر الوحي حياته وكلامه وأفعاله وهمّته وأخلاقه، فغيّر الحياة كلّها من أولها إلىٰ آخرها، فجعل للمولود أحكامًا خاصة، كالختان والعقيقة ونحوها، وجعل للميت أحكاما خاصة كذلك، كالكفن والغسل..

وغيّر أخلاق الناس، فأصبحوا أهل وفاء وحلم ورفق.

وغيّر أماكن اجتماعاتهم وهدفها، فيجتمعون في المساجد؛ بهدف الصلاة والشورىٰ ومصالح المسلمين.

---

(١) - أخرجه البخاري (٣٦٤) ومسلم (٣٤٠).

وغيّر منهج حياتهم، فأمرهم بخمس صلوات في اليوم والليلة، وصومِ شهر في السنة، وحجِّ البيت في العمر، وإخراجِ جزءٍ من أموالهم يُرَدّ علىٰ فقرائهم..

وغيّر طموحاتهم، فكان طموحهم في صلاح قلوبهم، وإعزازِ دينهم، وحفظِ أعراضهم، وتحسين أخلاقهم، وترفّعوا عن الانتقام للنفس، والكبر والحسد والتعالي والغيبة والنميمة والفخر، التي كانت سائدة قبل ذلك.

وغيّر مكانتهم، فكانوا أذلة محتَقرين، متفرقين متناحرين، ثم أصبحوا سادة الدنيا والدين، مجتمعين متآلفين.

وغيّر نظام حكمهم، فقد كانوا بلا أمير يرجعون إليه، بل لكل قبيلة رئيس، وأما بعد نزول القرآن فجمعهم تحت أمير واحد، يجتهد في نصح رعيته، ويحكم بينهم بالعدل، ويستشيرهم عند الأمور الهامّة، والرعية تُطِيعُه بالمعروف، ولا تُخالف أمره، ولا تخرج عن رأيِه.

وغيّر مصطلحاتهم، فأدخل مصطلح: المسجد، والوضوء، والصلاة، والزكاة، والعقيقة، والتوحيد، وسنن الفطرة، والخشوع، والجهاد، والطمأنينة..

كانت همم أصحابه قبل نزول القرآن: الطعام والشراب والنكاح والتجارة والزعامة..

وبعد نزوله كانت هممهم: في صلاح القلوب، وزكاة النفوس، وغذاء العقول، واكتساب محاسن الأخلاق، والبعد عن سفاسف الأمور، واجتمعت كلمتهم بعد تفرقها، وقويت شوكتهم بعد ضعفها، وحَسُنَت آراؤهم بعد فسادها..

وعظمت هممهم، فكانت هممهم في فتح البلاد، وأيّ بلاد؟

البلاد التي تحت وطأة واحتلال أعظم دولتين في العالم: الفرس والروم!

وكان العرب قبل إسلامهم أقلّ مِن أنْ يجترئوا علىٰ محاربة العربي الذي كان نائبًا عنهما..

والآن.. يجيّشون الجيوش لمحاربة فارس والروم في آنٍ واحد، جيش يخرج لقتالهم في العراق، التي تتبع فارس، وجيش يخرج لمحاربة الشام التي تتبع الروم..

وما هي إلا سُنيّات حتىٰ فلّوا جيوشهم، وهزموا جموعهم، وأخرجوهم من جميع أرض الشام والعراق ومصر واليمن..

من أين لهم هذا كله؟

إنه من الله تعالىٰ، الذي أنزل كتابه نبراسًا لهم، ومنهجًا لحياتهم ودينهم وأخلاقهم؛ عامتهم وخاصتهم..

إنه الدستور الذي انطلق منه عظماء الصحابة لفتح قلوب الناس قبل بلادهم..

إنه المعجزة التي قلَبت حياة أولئك الثلّة الْمحتَقرة المتفرّقة إلىٰ جيوش جرارة عبقرية حكيمة، تسير بنظام فريد، ومنهج سديد، ليس في الأنظمة الحديثة ما يُدانيه ويجاريه..

هل من عادات البشر أنْ يأتي رجل أميّ لا يقرأ ولا يكتب، ولم يتعلم عند أحد، ولم يُعاشر إلا أمثاله، وبعد بلوغه الأربعين يصدح بآراء مخالفة للآراء السائدة، ويقيم علىٰ دعواه البراهين الساطعة، والحجج القاطعة، وتتبعه الجموع الغفيرة،

ويؤسس نظاما سياسيا ودينيا وأخلاقيّا جديدا، وأحكاما كثيرة تتعلق بالأفراد والأسرة والدولة والماء والنبات والحيوان والأرض؟

ويأتي بأمور مستقبلية وقعت جلّها؟

ويكون أتباعه أحسن الناس أخلاقا، وأعظمهم أدبًا؟

أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلىٰ عليهم؟

لقد وضح بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ الكفار عجزوا عن مواجهة القرآن بنقضِه أو الإتيان بمثل سورة مثله، فلجؤوا إلىٰ العناد والتعنّت، واشترطوا لقبول الحق أن يأتي النبيّ محمد صلىٰ الله عليه وسلم بالآيات التي يختارونها، فقالوا: ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] أي: ألم يكفهم دليلاً علىٰ صدق محمد صلىٰ الله عليه وسلم وآيةً مغنية عن سائر الآيات- إن كانوا طالبين للحق غير متعنّتين-: هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كلّ مكان وزمان، فلا تزال معهم آيةٌ ظاهرةٌ باقية لا تزول ولا تضمحلّ، كما تزول كلّ آية بعد حدُوثها، وتكون في مكان دون مكان؟

وقد تحدّاكم أنْ تأتوا بمثلها – بل بجزء منها – فعجزتم وجبُنْتُم.

فالقرآن بما فيه من قصص وأحكام وحِكَم يُغْني عَنْ أخْبارِ الْأُممِ الْماضِيةِ واللاحقة، ويُغني بما يحويه من المواعظ والتربية والأخلاق عن كلام الحكماء في باب الوعظ والتربية والأخلاق.

ثم إنه تعالىٰ قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: جعلناه

معجزةً لرحمتنا بالعباد؛ ليعلموا بها الصادق، وهذا لأنّ إظهار المعجزة علىٰ يد الصادق رحمة من الله، وكان له أن لا يُظهرها فيبقىٰ الخلق في ورطةِ تكذيب الصادق أو تصديق الكاذب، وقوله: ﴿وذكرىٰ﴾ إشارة إلىٰ أنه معجزة باقية يتذكر ويتّعظُ بها كلّ من يكون ما بقي الزمان.

ثم قال تعالىٰ: ﴿لقوم يؤمنون﴾ يعني هذه الرحمة مختصة بالمؤمنين؛ لأنّ المعجزة كانت غضبًا علىٰ الكافرين؛ لأنها قطعت أعذارهم وعطلت إنكارهم.

ولقد ضرب الله لهم الأمثال الكثيرة التي تدلّ بجلاء علىٰ صدقه وصدق الذي أُنزل عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

فمهما جاء بآية فلن يُؤمنوا ويُسلموا؛ لأنّ الصادّ لهم عن قبول الحق الهوىٰ والكبر والحسد، وليس عدم قيام الدليل الدالّ علىٰ صدقِ الرسول صلىٰ الله عليه وسلم وصدقِ ما جاء به عن ربّه سبحانه وتعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقىٰ فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾.

فانظر إلىٰ هذا التعنّت العجيب، والاستهزاء المريب، الناشئ عن الكفر

والطغيان، والصادّ عن الهدىٰ والإيمان.

مقارنة بين أثر القرآن على أخلاق أهله وبين أثر أنظمة الغرب على أصحابها

أُحبّ أنْ أقارن بين أثر القرآن علىٰ أخلاق أهله، وبين أثر أنظمة الغرب علىٰ أصحابها فأقول:

"لقد قرأتُ كثيرًا من الكتب الحديثة التي تتحدَّث عن محاسن الأدب، ومكارم الأخلاق، وفنون التعامل، فوجدتها تتحدث عن الأمور الشكلية، كلطف الكلام، وحسن التعامل، والاحترام، والاجتهاد في تحسين السلوك، ولم تتحدث عن الأمور الجوهرية، وهي أصول الأخلاق القلبيَّة، التي هي منْشأ وأساس الأخلاق الظاهرة: القولية والعملية.

ولكلّ إنسان أخلاقٌ ظاهرة في تعامله وبشاشته ولطفه وإكرامه، وأخلاق باطنة في معتقداته وقناعاته وإيمانه، كالإخلاص لله في تعامله، وخلق الحياء والتواضع ومحبته لأخيه ما يحبه لنفسه، وسلامة قلبه من الحقد والغل والرياء وحبّ الشهرة والرئاسة والمدح.

وأخلاق الإنسان الباطنة هي الأصل وهي الأساس للأخلاق الظاهرة، كما أنّ الشجرة لا تحيا إلا بجذورها الممتدة في جوف الأرض المختفية في بطن الثرىٰ، فإذا أهمل أخلاقه الباطنة لن تنفعه أخلاقه الظاهرة، وسرعان ما تفسد وتضطرب عند

المصائب والمواقف الصعبة، كما أنَّ الشجرة لا تنفعها أغصانها وفروعها إذا هي بُتَّت من أرضها، وقُطعت من أصلها، وفُصلت عن جَذْرها، وسرعان ما تسقط وتذبل.

فإهمالها خلل كبير في الأخلاق.

إنّ أعظم مصدر يُكسب الأخلاق الحميدة، ويجتثّ الأخلاق السيئة: هو كتاب ربنا عز وجلّ.

والله تعالىٰ قد ذكر في كتابه عشرات بل مئات القواعد في الأخلاق والتعامل، وفي أقوال نبينا صلىٰ الله عليه وسلم ومواقفه وقصصه – التي مصدرُها القرآن، فقد كان خلقه القرآن – مئاتٌ من القواعد والآداب التي تُغني عن جميع قواعد وآداب الشرق والغرب لو تعلّمناها وطبّقناها، وأقول هذا عن قناعة تامة، واطّلاع وقراءة في كثير من الكتب الحديثة في التربية والسلوك: العربية والغربية، والاستماعِ لكثير من المحاضرات والدورات.

إنّ في سيرة معلّم البشرية صلىٰ الله عليه وسلم من مكارم الأخلاق قصصاً كاملة فيها جميع أركان وفروع فنون التعامل ومحاسن الأخلاق والآداب، وفيها فوق ذلك الصدق التامّ، والإخلاص الذي لا رياء ولا سمعة فيه، وفيها الدروس والعبر لمن تأمل وتدبّر.

وإذا لم نأخذ مكارم الأخلاق وحسن التعامل ممن لا مثيل ولا نظير له صلىٰ الله عليه وسلم في حسن أخلاقه، ولطف تعامله، وصدق لهجته، وجمال منطقه، وقوة

صبره، وعظيم حلمه، وشدة تواضعه، فمن أين نأخذ ذلك؟

إنّ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لم يكسب بحسن أخلاقه قلوب محبِّيه فحسب، بل كسب قلوب أعدائه، فأصبحوا من أشد المدافعين والمناضلين عنه وعن دينه وعقيدته، وذهبت أرواح كثير منهم في سبيل ذلك.

وليس هذا فحسب، بل جعل من العرب الذين لم تكن لهم أيّ مكانة بين الأمم قادةً عظماء، ورجالا حكماء؛ حيث تمّم وهذّب مكارم الأخلاق التي كانوا يتحلّون فيها، فخرجوا من صحرائهم القاحلة، وبيئتهم الغارقة بالجهل والظلام والفرقة، يحملون مشعل هذا النور: نور الدين والعلم والأخلاق والقِيَم والأدب والرحمة والكرم، والذي أضاءه لهم نبيُّنا محمد عليه الصلاة والسلام، ينشرونه في الأرض، حتىٰ وصلوا بِهِمَمِهم وعزائمهم خلال أقل من ثلاثين سنة فقط إلىٰ أقصىٰ مشارق الأرض ومغاربها، فمن جهة الغرب: فُتحت بلاد المغرب إلىٰ أقصىٰ ما هنالك؛ الأندلسُ، وقبرص، وبلادُ القيروان، مما يلي البحر المحيط، ومن جهة المشرق: وصل الفتحُ إلىٰ أقصىٰ بلاد الصين، وقُتِل كسرىٰ وبادَ مُلْكُه بالكلية، وفُتِحَتْ مدائنُ العراق وخراسانَ والأهواز، ففتحوا القلوبَ بالأخلاق أكثر من فتح الديار بحدّ السنان.

فقد دخل كثير من الناس في الإسلام بسبب أخلاق وتعامل التجار المسلمين، مثل: تركستان الشرقية في الصين، ووسط آسيا، وبلدان جنوب شرق آسيا كأندونيسيا وماليزيا والفلبين وغيرها، وجزر المالديف التي تقع في المحيط الهندي جنوب

غرب سريلانكا.

لم يحمل الإسلامَ إليها جيشٌ مقاتل، ولا قائد فاتح مناضل، بل حمله تجّار من عامّة المسلمين، ما دعوا إليه بخطبهم ومحاضراتهم، بل بأخلاقهم وحسن تعاملهم، ولبث الإسلامُ يمشي خطوة خطوة، ونورُه يتسرب شعاعًا بعد شعاع كما يتنفس الصبح عن نهارٍ يمحو سواد الليل، فما أهلّ القرن العاشرِ الهجري حتىٰ صارت له قوّةٌ وصار لأهله مَنَعَةٌ وسلطان.

وإنما حصل لهم هذا التأثير والتمكين وفتح قلوب العباد للدخول في دين الإسلام أفواجًا بسبب نيّاتهم الصالحة، وتحلّيهم بروح الأخلاق الإسلامية، التي منبعُها وأساسها القرآن، لا بسبب تخلّقهم بأخلاقهم العربية، وإلا فلم يُذكر أنّ للعرب تأثيرًا علىٰ غيرهم من أُمَم الأرض في جذبِهم لعبادةِ أصنامهم، مع أنهم كانوا يجوبون الأرض شرقًا وغربًا.

فهل عرف العرب والعجم وكل الأمم معنىٰ التواضع إلىٰ درجة أن يقول سيّدهم لعبد حبشي: سيدنا؟

فهذا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه يقول: «أبو بكر سيّدنا، وأعتق سيدنا - يعني بلالا -».[(١)]

وهل عرف العرب والعالم أجمع معنىٰ الوفاء والالْتِزام بالعهود إلىٰ درجة أن يأتي رجال لنصرة قومهم، والعدوّ أمامهم، وهم أكثر عددا وعُدّة، وقد بطشوا بهم

---

(١) - رواه البخاري (٣٧٥٤).

وظلموهم أشدّ الظلم، وأخرجوا كثيرا منهم من بلادهم، فيأبىٰ القائد؛ لأنّ هؤلاء الرجال قد عاهدوا عدوهم كُرْهًا علىٰ عدم قتالهم؟

عرف هذا رجلٌ واحدٌ اسمه: محمد بن عبد الله رسولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم، فقَبْل معركة بدر - التي يُواجه فيها أشدّ أعدائه وأعداء أصحابه، الذين قَتلوا بعضهم، وبطشوا وعذّبوا كثيرًا منهم أشدّ العذاب، وسحبوهم علىٰ الجمر، ووضعوهم تحت نيران الشمس الملتهبة لساعات طويلة، وأخرجوهم من ديارهم وأهليهم - يأتي حذيفة بن اليمان هو وأبوه رضي الله عنهما، والمسلمون في أشدّ الحاجة لهما، فقد كانوا أقلّ منهم عددًا وعدّة، فلمّا عرض القتال معهم رفض النبي صلىٰ الله عليه وسلم ذلك!

لماذا؟

لأنّ حذيفة رضي الله عنه أخبره أول ما قابله أنه خرج هو وأبوه إلىٰ مكة قبل معركة بدر، فأخذهم كفار قريش وقالوا لهما: إنكم تريدون محمدا، فقالا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منهما عهد الله وميثاقه لينصرفنّ إلىٰ المدينة ولا يُقاتلان معه، فلذلك رفض الغدر ونقض الميثاق وقال لهما: «انصرفا، نفِي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم».[(١)]

مع أنهما أُخذا كرهًا، وعاهدا الظالمين المجرمين تحت الإكراه والإجبار، وما خرج هؤلاء الظلمة المجرمون القتلةُ إلا لطمس التوحيد، واجْتِثاث الإسلام، ونحرِ

---

(١) - رواه مسلم (١٧٨٧).

نبيِّ الأمةِ صلوات الله وسلامُه عليه، وتدمير دولته!

وهل سمعت بحاكم يتعرّض لأكثر من سبع محاولات اغتيال، ويعفو ويُسامح في كلّها؟

حصل هذا لمحمد بن عبد الله رسولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم، وفي إحداها باشر المجرم الجريمة بتسميم طعامه، وذلك أن امرأةً يهوديَّةً أتته بشاةٍ مسمومة، فأكل منها، فعلم بذلك، فجيء بها إليه فسألها عن ذلك؟ قالت: أردتُ لأقتلك، فقال: ما كان الله ليسلّطكِ عليّ، قالوا: ألا نقتلها؟ قال: «لا»(١)، ولم يزل يُعاني من آثار السمّ حتىٰ مات متأثرًا به، ومع ذلك لم يقتلها ولم يُعاقبها.

ونزل صلىٰ الله عليه وسلم يومًا مع أصحابه في مكان، وتفرقوا ليستظلّوا بالشجر، فنزل رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم تحت شجرة وعلّق بها سيفه، ونام أصحابه، فإذا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يدعوهم، وإذا عنده أعرابي، فقال: "إنّ هذا اخترط عليّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله، - ثلاثا - ولم يعاقبه وجلس".(٢)

وهل عرفت الأمم كلّها معنىٰ الإيثار الحقّ، الذي غرسه الإسلام في قلوب أتباعه، حتىٰ قال أحدهم لصاحبه الفقير الذي أُخْرج من بلده: سأقسم مالي بيني وبينك

---

(١) - رواه مسلم (٢١٩٠).

(٢) - رواه البخاري (٢٩١٠).

شطْرين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها، حتىٰ إذا حلّت تزوجتَها.(١)

وهل عرفت معنىٰ الشفقة والرحمة والعطف وسلامة الصدر من الحقد إلىٰ درجة أنْ يكفّن أحد أعدىٰ أعدائه المتظاهرين بالإسلام نفاقًا، الذي أشاع بأن زوجته الطاهرة قد زنت، وقال: ليخرجن من المدينة الأعز – يعني نفسه – الأذلَّ – يعني النبيّ صلىٰ الله عليه وسلم، ويصلي عليه!

فقال عمر رضي الله عنه: أما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾؟

فقال : لو أعلم أني إن زدْتُ علىٰ السبعين غُفِر له: لزدت عليها.

فصلىٰ عليه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فأنزل الله تعالىٰ:﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أبدا﴾.(٢)

وهل عرفت أكرم وأنْزه وأزهد ممن فُتحت له الدّنيا، وغنم آلاف الدنانير والدراهم والشّياه والإبل، بعد معركة خيبر وحنين، فوزّعها علىٰ الناس، وأعطىٰ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وعباس بن مرداس، كلّ واحد منهم مائةً من الإبل(٣)، وأقبل الأعراب يسألونه حتىٰ ألْجَؤُوه إلىٰ شجرة، فعَلِق رداؤه بشوكها، فوقف رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقال:

---

(١) – رواه البخاري (٣٧٨١).

(٢) – رواه البخاري (١٣٦٦).

(٣) – رواه مسلم (١٠٦٠).

«أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العِضَاهِ(١) نَعَمًا(٢) لقَسَمْته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً، ولا كذُوبًا، ولا جبانًا». (٣)

ومع ذلك لم يسْتَبْق لنفسه شيئًا، بل رجع إلىٰ بيوت زوجاته الصغيرة المتواضعة خاوي اليدين، فلم يغيّرها ولم يزد عليها، ومات وفي ذمّته دَيْن علىٰ يهوديّ علىٰ طعام اقترضه منه ليُطْعِم أهله! قالت عائشة رضي الله عنها: «توفي رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير»". (٤)

فأين نجد مثل هذه القيم والمبادئ؟

لا نجدها والله إلا في هذا القرآن الكريم، ومن تمسّك به وتخلّق بخلقه، وعلىٰ رأسهم: النبيّ الخاتم الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، وأصحابه وأتباعه، جعلنا الله منهم.

وقد كان للعرب أخلاق حسنة ورديئة، ولو كانت أخلاقهم كلّها حسنة لَمَا استطاعوا أن يؤثِّروا في الناس هذا التأثير؛ وذلك لأنّ القرآن صبغ علىٰ أخلاقهم صبغةً فيها نور وروح تأسر القلوب، وتأخذ بالألباب.

فلو جُمعت محاسن أخلاق الأمم والشعوب كلّها لَكان ما جاء به القرآنُ أشمل

---

(١) – شجر عظيم الشوك.

(٢) – أي: إبلاً.

(٣) – رواه البخاري (٢٨٢١).

(٤) – رواه البخاري (٢٩١٦).

وأحسن وأكمل وأبلغ وأكثر وأقوىٰ تأثيرًا منها.

وقد وجدت في آيات القرآن الكريم وسنةِ النبيّ محمد صلىٰ الله عليه وسلم – الذي جعل القرآن مصدَر أخلاقه وتعامله – حول موضوع الأخلاق والتعامل ما لم أجده في غيرهما، وتأثرت بهما ما لم أتأثر بغيرهما.

فقل لي بربك: أيّ كتاب يدلّك علىٰ أحسن من تعامل نبي الله يوسف عليه السلام مع إخوته الذين رموه في البئر ليموت جوعًا وعطشًا وكمدًا، ثم بعد ذلك يتهمونه بأنه كان سارقًا، فيُخفيها في نفسه، ﴿ولم يبدها لهم﴾ أي: لم يقابلهم علىٰ ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسرّ الأمر في نفسه، مع فظاعة هذه التهمة.

وبعد كلّ هذا يقول لهم: ﴿لا تثريب عليكم﴾، ثم زاد في العفو فدعا لهم ﴿يغفر الله لكم﴾، ثم فتح لهم باب الأمل والرجاء والفأل ﴿وهو أرحم الراحمين﴾.

وفي أي كتاب تجد تعاملا أحسن وأكمل وأرقىٰ من تعامل النبي صلىٰ الله عليه وسلم مع رجل غليظ الطبع، جبذه بردائه جبذة شديدة، وهو يمشي مسرعًا، حتىٰ رجع من شدّتها في نحر الأعرابي، أي: اسْتدار صلوات الله وسلامه عليه من قوة الجذْبة حتىٰ استقبل صدر الأعرابي استقبالا تاما!، وقد أثرت حاشية الرداء في عنقه من شدة جبذته، وبعد أن مدّ يده عليه يسألُه مالا فيقول: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك!، أي: ليس مالَك ولا لك فيه منّةٌ.

فابتسم وضحك في وجهه، ولم يكتف بهذا فحسب، بل أمر له بعطاء صلىٰ الله عليه وسلم.

وأين تجد من يدعوه إلىٰ طعام فيرفض حتىٰ تحضر معه زوجته التي كانت جائعة، فلم تطب نفسه أنْ يشبع ويأكل أحسن الأكل دونها!

أخبرني أين تجد من يعلّم مثل هذه المبادئ والقيم والأخلاق؟

وأين تجد من يزرع هذه المشاعر والأحاسيس المرهفة الراقية؟

والله لن تجدها إلا في هذا الكتاب العظيم، وسنةِ نبيّه صلىٰ الله عليه وسلم الذي جعل كتاب الله مصدَرَ تعامله وأخلاقه.

وأين تجد من يتكلّم عن خلق الحياء، والإيثار، وهضم النفس، التي هي منْبَع وأساس وأصل جلّ الأخلاق الفاضلة، والتعاملات الحسنة؟

لن تجدها إلا في الكتاب الكريم".[(١)]

فقارن بين مكارم وأخلاق أصحاب القرآن، وبين جرائم وسفالة أصحاب تلك الأنظمة، وانظر إلىٰ ما حصل -في هذه الأيام في الجزيرة التي يمتلكها مستثمر غربي، حيث كوّن دائرةً اجتماعيةً من الشخصيات العامة، ضمّت سياسيين ومشاهير عالميين جلّهم من النخب الغربية المثقفة، من الرجال والنساء، والتي ترأّس كثير منهم مناصب سياسية ووزارية، بل منهم من شغل منصبًا في حقوق الإنسان والحيوان!- من الجرائم الجنسية والشذوذ واغتصاب الأطفال، والقتل والمتاجرة بالأعضاء، قرابة الثلاثة عقود.

ولم تكن تلك الجرائمُ التي تجرّمها تلك الأنظمة الغربية والشرقيّة، علىٰ أيدي

---

(١) - فنُّ التَّعَامُلِ واكْتِسَابِ الْأَخْلاقِ، للمؤلف، ص: (١٨-٢٧) بتصرّف يسير.

أناس عاديين، بل علىٰ أيدي نخب ومفكرين ورؤساء ووزراء!

ويكفي أنْ تعرف أنّ من بينهم شقيق ملك بريطانيا، الذي اعتقلته السلطات البريطانية، لثبوت جرائمه البشعة، ومن ضمنها اغتصاب القُصّر.(١)

(١) - مصدر هذه الجرائم من موقع وزارة العدل الأمريكية، وقد نشرت ثلاث ملايين صفحة ومائة وثمانين ألف صورة، وألفي مقطع فيديو.

ماذا قال الْمُنصِفون عن القرآن؟

إنّ تأثير القرآن علىٰ قارئه واضح وجليّ وعظيم، ولو لم يكن مسلمًا موقنًا به، وسأذكر بعض مشاعر وتأثّر الذين قرؤوا القرآن من أعيان وكبار الغربيين غيرِ المسلمين، لا لنزداد يقينًا وإيمانًا، فإيماننا بكتاب ربنا لا يحتاج إلىٰ شهادة وقول أحد مهما كان، وإنما الهدف من ذلك أن نقف علىٰ مشاعرهم وأثر القرآن عليهم(١):

١- قال أحدهم: القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يعترف بكافة الكتب السماوية الأخرىٰ، بينما نجد أنها جميعـًا يرفض بعضها بعضـًا، وهذه في الحقيقة هي إحدىٰ خصائص ومميزات القرآن الكريم، آخر الكتب السماوية وخاتمها.

إن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يحفظه عن ظهر قلب أُلوفٌ مؤلّفة من البشر في مختلف بقاع الأرض، بينما نجد أن الكتب المقدسة الأخرىٰ محفوظة بالخطّ المطبوع فقط.

ولو اختفت الكتب المطبوعة لظلّ القرآن هو كتاب الله الوحيد المحفوظ في الصدور، وهكذا يحق له أن يتباهىٰ بأنه ظلّ في مأمن من التحريف، لم يُنقَص منه حرف واحد، ولم يُزَد فيه حرف واحد، منذ أن نزل به الوحي علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم.

---

(١) - وهذه الأقوال جمعها الأخ عماد الدين خليل في كتابه: قالوا عن القرآن.

فليس في القرآن الكريم تناقضات ولا أخطاء من أي نوع، هذا في الوقت الذي تعاني فيه الكتب السماوية الأخرىٰ في نسختها الحالية من الكثير من التغيير والتبديل، وهذا سبب آخر جعلني أؤمن بالإسلام.

٢- وقال آخر: إن معجزة الإسلام العظمىٰ هي القرآن الذي تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة.

إنه كتاب لا سبيل إلىٰ محاكاته، إن كلاً من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغي، وليس بالقصير أكثر مما ينبغي.

أما أسلوبه فأصيل فريد، وليس ثمة نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي تحدّر إلينا من العصور التي سبقته.

إن آياته كلها علىٰ مستوىٰ واحد من البلاغة، حتىٰ عندما تعالج موضوعات لابد أن تؤثر في نَفَسها وجرسها كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها، إنه يكرر قصص الأنبياء [عليهم السلام] وأوصاف بدء العالم ونهايته، وصفات الله وتفسيرها، ولكن يكررها علىٰ نحو مثير إلىٰ درجة لا تضعف من أثرها، وهو ينتقل من موضوع إلىٰ موضوع من غير أن يفقد قوته.

إننا نقع هنا علىٰ العمق والعذوبة معًا – وهما صفتان لا تجتمعان عادة – حيث تجد كل صورة بلاغية تطبيقًا كاملاً، فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد [صلىٰ الله عليه وسلم]، وهو العربي الأميّ الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أبيات لا ينمّ أي منها عن أدنىٰ موهبة شعرية؟.

لا يزال لدينا برهان آخر علىٰ مصدر القرآن الإلهي في هذه الحقيقة: وهي أن نصّه ظل صافيًا غير محرف طوال القرون التي تراخت ما بين تنزيله ويوم الناس هذا، وأن نصه سوف يظل علىٰ حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف، بإذن الله مادام الكون.

إن هذا الكتاب الذي يتلىٰ كل يوم في طول العالم الإسلامي وعرضه، لا يُوقع في نفس المؤمن أيما حسّ بالملل، علىٰ العكس، فإنَّ تكرار تلاوته تزيد محبّة المؤمنين له أكثر فأكثر يومًا بعد يوم، إنه يوقع في نفس من يتلوه أو يصغي إليه حسًا عميقًا من المهابة والخشية.

إن في إمكان المرء أن يستظهره في غير عسر، حتىٰ إننا لنجد اليوم علىٰ الرغم من انحسار موجة الإيمان آلافًا من الناس القادرين علىٰ ترديده عن ظهر قلب، وفي مصر وحدها عدد الحفاظ أكثر من عدد القادرين علىٰ تلاوة الأناجيل عن ظهر قلب في أوروبا كلها.

إن انتشار الإسلام السريع لم يتمّ لا عن طريق القوة ولا بجهود المبشرين الموصولة، إن الذي أدىٰ إلىٰ ذلك الانتشار كون الكتاب الذي قدمه المسلمون للشعوب المغلوبة، مع تخييرها بين قبوله ورفضه: كتاب الله، كلمة الحق، أعظم معجزة كان في ميسور محمد [صلىٰ الله عليه وسلم] أن يقدمها إلىٰ المترددين في هذه الأرض.

٣- **وقال آخر**: من الوجه العلمي، بصرف النظر عن أنه كتاب موحىٰ به، فالقرآن أبلغ كتاب في الشرق.. وهو حافل بالمنجزات السامية مليء بالاستعارات الباهرة.

أحكام القرآن ليست مقتصرة علىٰ الفرائض الأدبية والدينية.. إنه القانون العام للعالم الإسلامي، وهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية والجزائية، ثم هو قانون ديني يُدار علىٰ محوره كل أمر من الأمور الدينية إلىٰ أمور الحياة الدنيوية، ومن حفظ النفس إلىٰ صحة الأبدان، ومن حقوق الرعية إلىٰ حقوق كل فرد، ومن منفعة الإنسان الذاتية إلىٰ منفعة الهيئة الاجتماعية، ومن القصاص في هذه الدنيا إلىٰ القصاص في الآخرة.

وعلىٰ ذلك فالقرآن يختلف ماديًّا عن الكتب المسيحية المقدسة التي ليس فيها شيء من الأصول الدينية، بل هي في الغالب مركبة من قصص وخرافات واختباطٍ عظيم في الأمور التعبدية، وهي غير معقولة وعديمة التأثير.

هذا القرآن الذي هو كتابُ حكمة فمن أجال طرْف اعتباره فيه وأمعن النظر في بدائع أساليبه وما فيها من الإعجاز رآه وقد مرّ عليه من الزمان ألف وثلاثمائة وعشرون سنة[١] كأنه مقول في هذا العصر؛ إذ هو مع سهولته بليغ ممتنع، ومع إيجازه مفيد.

وبالجملة فإنّ فصاحته وبلاغته قد أعجزت مصاقع البلغاء وحيرت فصحاء الأولين والآخرين.

وإذا عطفنا النظر إلىٰ ما فيه من الأحكام وما اشتمل عليه من الحكم الجليلة نجده جامعًا لجميع ما يحتاجه البشر في حياته وكماله وتهذيب أخلاقه.

---

(١) - وإلىٰ يومنا هذا.

وكذا نراه ناهيًا عما ثبت بالتجارب العديدة خسرانُه وقبحُه من الأفعال ومساوئ الأخلاق.. وكم فيه ما عدا ذلك أيضًا ما يتعلق بسياسة المدن وعمارة الملك، وما يضمن للرعية الأمن والدعة من الأحكام الجليلة التي ظهرت منافعها العظيمة بالفعل والتجربة.

٤- **وقال آخر**: لن أستطيع مهما حاولت أن أصف الأثر الذي تركه القرآن في قلبي، فلم أكد أنتهي من قراءة السورة الثالثة من القرآن حتىٰ وجدتني ساجدة لخالق هذا الكون، فكانت هذه أول صلاة لي في الإسلام.

٥- **وقال آخر**: لا شك أنّ رسالة القرآن تحلّ المشكلات الاجتماعية والأخلاقية والفكرية.

ماذا قال الحاقدون عن القرآن؟

"عرف أعداء الله أهمية كتاب الله تعالىٰ في نفوس المسلمين، ومدىٰ تعلقهم به، وعلموا أنه هو باعث نهضتهم، ومحيي همتهم، وموحد كلمتهم، وسبب نجاتهم وقوتهم.

يقول الحاخام الأكبر لإسرائيل سابقًا مردخاي إلياهو، مخاطبا مجموعة علىٰ وشك الالتحاق بالجيش الإسرائيلي: (هذا الكتاب الذي يسمونه القرآن هو عدونا الأكبر والأوحد، هذا العدو لا تستطيع وسائلنا العسكرية مواجهته، كيف يمكن تحقيق السلام في وقت يقدس العرب والمسلمون فيه كتابا يتحدث عنا بكل هذه السلبية؟! علىٰ حكام العرب أن يختاروا؛ إما القرآن أو السلام معنا).

وفي بدايات هذا القرن كان الجنود الإيطاليون يتغنون بأنشودتهم: (أنا ذاهب إلىٰ ليبيا فرحا مسرورا، لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة ومحو القرآن، وإذا مت يا أماه فلا تبكيني، وإذا سألك أحد عن عدم حدادك فقولي: لقد مات وهو يحارب الإسلام).

ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر: (إننا لن ننتصر علىٰ الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن، ويتكلمون العربية).

ويقول وليم جيفورد: (متىٰ توارىٰ القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرىٰ العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيدا عن محمد وكتابه).

ويقول اللورد كرومر في مصر: (جئت لأمحو ثلاثا: القرآن والكعبة والأزهر).

يقول جون تاكلي: (يجب أن نستخدم القرآن -وهو أمضىٰ سلاح-ضد الإسلام نفسه، بأن نعلّم هؤلاء الناس-يعني المسلمين- أن الصحيح في القرآن ليس جديدا، وأن الجديد ليس صحيحا).

ويقول غلادستون -وزير المستعمرات البريطاني سنة ١٨٩٥، ثم رئيس الوزراء -: (لن تحقق بريطانيا شيئا من غاياتها في العرب، إلا إذا سلبتهم سلطان هذا الكتاب، أخرجوا سر هذا الكتاب -القرآن- مما بينهم تتحطم أمامكم جميع السدود).

وقال أيضا: (ما دام هذا القران موجودا في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوروبا السيطرة علىٰ الشرق، ولا تكون هي نفسها في أمان).

إذن هم يعرفون أن القرآن مصدر قوة المسلمين؛ لذلك أعلنوا الحرب علىٰ كتاب الله، وهذه الحرب قديمة قدم نزول القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ يعني أن الغلبة لهم علىٰ المسلمين إنما تكون باللغو والطعن في القرآن".[(١)]

(١) - الطعن في القرآن الكريم والرد علىٰ الطاعنين (ص٧٢).

الأدلّة العقليّة على إثبات نبوّةِ النبي محمد صلى الله عليه وسلم

أما بالنسبة للنبي محمد صلىٰ الله عليه وسلم، فالحديث عنه وعن عظمته وشمائله يطول، وسأقتصر علىٰ دليلين عقليين في إثبات نبوّتِه:

الأول: عظمةُ ما جاء به مُقارنةً بحياته البدائية.

من المقطوع به – كما تقدم – أنّ النبيّ صلىٰ الله عليه وسلم لَمْ يَكُنْ قَبْلَ النُّبُوَّةِ مَشْهُورًا بَيْنَ قَوْمِهِ بِالْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ- وَإِنْ كَانَ فَصِيحًا بَلِيغًا -وَإِنَّمَا صَرَفَهُ اللهُ تَعَالَىٰ أن يكون مشهورًا بِالْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ لِتَكُونَ حُجَّتُهُ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ بِالْبَلَاغَةِ أَظْهَرَ وَأَبْعَدَ عَنِ الشُّبْهَةِ، فَلَا يُمكن أنْ يحتج أحدٌ عليه فيقولُ : إِنَّهُ تَمَرَّنَ عَلَىٰ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ وَتمرّس عليه الزَّمَنَ الطَّوِيلَ لكي يأتي يومًا ويزعم أنه نبيٌّ.

"فلَمْ يَكُنْ مَعْدُودًا قَبْلَ النُّبُوَّةِ فِي بُلَغَاءِ الْقَوْمِ بِالشِّعْرِ وَلَا الْخَطَابَةِ، وَإِنَّمَا كَانَ مَشْهُورًا بِالْأَمَانَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَالصِّدْقِ".(١)

إنّ الْمُتجرّد العاقل ليرىٰ في محمد أعظم مُعجزةٍ في التاريخ، وأعظم دليل علىٰ أنّ هذا الكون له مُدبّرٌ حكيمٌ لطيف!

تأمل معي- أيها القارئُ الكريم- في حياة وسيرة النبي محمد قبل نُبوّتِه، حيث

---

(١) – يُنظر تفسير المنار: ٥/ ٢٠١.

عاش أربعين سنةً لم يُؤْثَرْ عنه فيها شيءٌ من العلم، ولم يزاحم فحول البلاغة في نثر ولا نظم، ولم يكن إلا واحدًا من أفراد الناس، يعيش كما يعيشون، ويسير كما يسيرون- إلا أنه كان يجتنب سفاسف الأمور والأخلاق-.

وكان يصفُه قومُه بالصدق والأمانة لا غير، فلم يصفوه بالبليغ ولا بالحكيم، ولا بالفصيح ولا بالفهيم، ليس لأنه لم يكن كذلك، بل لأنه لم يتميّز وينفرد بها عن غيرِه.

ثم ما لبث هذا الرجل العاديّ، الذي وصفه ربّه بأنه كان قبل النُّبُوَّة ضالاً وغافلاً، ولا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، حيث قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدىٰ﴾، يعني ضالا غافلاً عما أنت عليه من الحق والهدىٰ والعلم، فهداك للتوحيد والنبوة.

وقال عنه: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقال عنه: ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

هكذا كان حالُه قبل بلوغه الأربعين سنة، والغالب أنّ من تجاوز الأربعين ولم يتميّز بشيءٍ قبلها، لن يَبْرُع ويتميّز بعدها، ولكنه ما لبث أنْ قلب الدّنيا، وغيّر موازين القوىٰ المسيطرة فيها هو وأصحابُه الذين تبعوه وأيدوه في أقل من أربعين سنةٍ فقط!!

كيف يُمكن لرجلٍ واحدٍ أنْ يُحدث هذه النقلَة العظيمة العجيبة في زمن قصير جدًّا!

كيف اسْتطاع هو وأتباعه أنْ يُقنعوا الناس بدينهم وعقيدتهم بلا إكراه وإلزام، فقد وطئتْ أقدامُهُم في هذه الْمُدة الوجيزة كامل الجزيرة العربية، وفارس وأذربيجان

شرقًا، والعراق والشام شمالاً، ومصر والسّودان والمغرب وتونس غربًا.

وأسلم أغلب سُكّان هذه البلاد طواعيةً ورغبة؛ لِما وجدوا من الفاتحين من سماحةٍ وعدل، وما لَمَسُوه من دينهم من حقّ مُوافق للعقل والفطرة.

فهل يُمكن لرجل هذه نشأتُه، أنْ يُحدث هذا كله دون مُعجزةٍ إلهيّة، وقوّةٍ خارجيّة؟

يقينًا: لا.

ثم انظر إلىٰ النهضة العلمية التي نتجت عن دعوته، فقد أُلّفت مئات الكتب في تفسير وفهم القرآن الكريم، ومئات الكتب في الحديث والعقيدة والفقه والأصول والنحو والبلاغة والأدب وغيرها، وتخرج من مدرسته مئات الآلاف من العلماء والأذكياء والقادة، الذين أكملوا نهضته، وأتموا ما أشاده، وتمسكوا بهديه ودينه.

وأضحت أمته اليوم تُناهز الْمليار بل وتزيد يومًا بعد يوم، ويدخل في دينه آلاف المخالفين والمحاربين والكارهين له.

ألا يكفي ذلك دلالةً بيّنةً علىٰ أنه وحيٌ يُوحىٰ، وأنّ ما جاء به نورٌ وهُدىٰ؟

بلىٰ والله.

ثم تأمل: إذا أردنا مدح عالم قلنا: قرأ ودرس وتعلّم، إلا رسول الله ﷺ فإننا إذا بالغنا في مدحه قلنا: أمّي لم يقرأ ولم يدرس!

ومع ذلك خرَّج أعظم جيل!

قال الله - تعالىٰ -: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾، "ولم يُنقل أنّ الله

- تعالىٰ - بعث نبيًّا أميًّا غير نبينا صلىٰ الله عليه وسلم، فهو وصْفٌ خاص لا يشارِك محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم فيه أحدٌ من النبيّين، والأميةٌ دليل واضح جليّ من أكبر وأوضح الأدلة علىٰ نبوته، فإنه جاء بعد النبوّة بأعلىٰ العلوم النافعة، وهي ما يُصلح ما فسد من عقائد البشر وأخلاقهم وآدابهم وأعمالهم وأحكامهم، وعمِل بها، فكان لها من التأثير في العالم ما لم يكن ولن يكون لغيره من خلق الله.

إنّ العاقل المستقلّ المفكّر إذا عرف تاريخ محمد صلىٰ الله عليه وسلم وتاريخ أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام فإنه يرىٰ أن محمدا صلىٰ الله عليه وسلم قد نشأ أميًّا لم يتعلم القراءة ولا الكتابة، وأنّ قومه الذين نشأ فيهم كانوا أميّين وثنيّين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الأمم وعلوم التشريع والفلسفة، حتىٰ إنّ مكة عاصمة بلادهم، وقاعدة دينهم، ومَثْوىٰ كبرائهم ورؤسائهم، ومرجع الشعوب والقبائل للحج والتجارة فيها، والمفاخرة بالفصاحة والبلاغة في أسواقها التابعة لها: لم يكن يوجد فيها مدرسةٌ ولا كتاب مدوّن قطّ، فما جاء به من الدّين التام الكامل، والشرع العام العادل، لا يمكن أن يكون مكتَسبًا، ولا أن يكون مستنبَطا بعقله وفكره".[(١)]

لقد ظهر جليًّا أنّ النبي مُحمّدًا صلىٰ الله عليه وسلم لم يتلق أيّ علمٍ من أحدٍ قبل النبوّة، ولم يكن له أُستاذٌ يستقي العلم والمعرفة منه، ولم يكن يقرأُ ويكتب.

وإنّنا إذا أردنا مدح عالم وخبير قلنا: قرأ كذا وكذا، ودرس كذا وكذا، وتلقىٰ العلم من العالم الفلاني، واشْتغل في العلم والبحث سنواتٍ كثيرة، إلا رسول الله!

---

(١) - المختار من تفسير المنار (ص: ١٣٥ ، ٢٧٨) بتصرف يسير.

فإننا إذا مدحناه قلنا: أمّيٌّ لم يقرأ ولم يكتب، ولم يتعلم من أحدٍ؟ لماذا؟ لأنه تلقىٰ أعظم علم من أعظم مُعلّم، وهو الخالق تبارك وتعالىٰ.

ولذلك لَمَّا رأىٰ كفار قريشٍ أنّ منطق النبي محمّد يعلو، والقلوبَ إلىٰ ما جاء به تهفوا، وأنّ ما جاء به الهدىٰ والنور قد تلقَّته القلوب السليمة بالقبول والتسليم، لصحةِ منطقه، وسلامته من الخرافات والأباطيل، رأوا أنّه لا يُمكن أنْ يأتي به من نفسه، بل لابدّ من مصدرٍ يتلقىٰ منه هذه العلوم والبيان السّاحر للقلوب، وأبوا أنْ يقتنعوا أنه من الرب الخالق القادر، فلَفّقوا عليه تهمة الأخذ من غيرِه من البشر، وهم يعرفونه منذ نعومة أظفاره، ولم يروا أحدًا يُعلّمه، ولا رأوه يذهب إلىٰ أحدٍ يتعلم منه، ولو علموا ذلك لسمّوه واشْتُهر بينهم.

فلذلك قَالُوا: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

فردّ الله تعالىٰ عليهم: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

الثاني: شهادة الأعداء والكفار له:

"لقد أنصف كثيرٌ من الغربيين محمدًا، وكان هذا الإنصاف ناتجًا عن دراسة موضوعية مستفيضة لسيرة وحياة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وقد اكتملتْ في هذه الدراسة عناصر المنهج العلمي الحديث القائم علىٰ الملاحظة والتجربة والاستقصاء، فخرجت نتائجهم إيجابية تجاه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وأصبحت شهاداتهم نورًا يهتدي به الباحثون عن الحقيقة في الغرب.

١- الشاعر الفرنسي لامارتين(١):

"أترون أن محمدًا كان صاحب خداع وتدليس، وصاحب باطل وكذب؟! كلا، بعدما وعينا تاريخه، ودرسنا حياته، فإنَّ الخداع والتدليس والباطل والإفك.. كل تلك الصفات هي ألصق بمن وصف محمدًا بها"(٢).

٢- عالم الاجتماع غوستاف لوبون(٣):

"إنني لا أدعو إلىٰ بدعة مُحْدَثة، ولا إلىٰ ضلالة مستهجَنَة، بل إلىٰ دين عربي قد أوحاه الله إلىٰ نَبِيِّه محمد، فكان أمينًا علىٰ بثِّ دعوته بين قبائل تلهَّتْ بعبادة الأحجار والأصنام، وتلذَّذَتْ بتُرَّهَات الجاهلية، فجمع صفوفهم بعد أن كانت مبعثرة، ووحَّدَ كلمتهم بعد أن كانت متفرِّقَة، وَوَجَّهَ أنظارهم لعبادة الخالق، فكان خير البرية علىٰ الإطلاق حُبًّا ونسبًا وزعامة وَنُبُوَّة، هذا هو محمد الذي اعتنق شريعته أربعمائة مليون

---

(١) – ألفونس دو لامارتين Alphonse de Lamartine (1790- 1869م): كاتب وشاعر وسياسي فرنسي، كان كثير السفر، أقام مدة في أزمير بتركيا. من كتبه: رحلة إلىٰ الشرق، وتأملات شعرية.

(٢) – السفر إلىٰ الشرق ص٨٤.

(٣) – غوستاف لوبون Gustav Lobone (1841- 1931م): مستشرق فرنسي، قام بدراسات متخصصة في علم النفس والاجتماع، من أشهر كتبه: حضارة العرب، الذي يعدّ من أمهات الكتب التي صدرت في العصر الحديث في أوربا لإنصاف الحضارة العربية الإسلامية. انظر: أحمد حامد: الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء ص٥٩-٦١.

مسلم، منتشرين في أنحاء المعمورة، يُرَتِّلُونَ قرآنًا عربيًّا مبينًا"(١).

ويقول في موضع آخر: "فرسول كهذا جدير باتِّبَاع رسالته، والمبادرة إلىٰ اعتناق دعوته؛ إذ إنها دعوة شريفة، قِوَامُهَا معرفة الخالق، والحضُّ علىٰ الخير، والردع عن المنكر، بل كل ما جاء فيها يرمي إلىٰ الصلاح والإصلاح، والصلاح أنشودة المؤمن، وهو الذي أدعو إليه جميع النصارىٰ"(٢).

٣- المفكِّر البريطاني لين بول(٣):

"إن محمدًا كان يَتَّصِفُ بكثير من الصفات؛ كاللطف والشجاعة وكرم الأخلاق، حتىٰ إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثَّر بما تَطْبَعُه هذه الصفات في نفسه، ودون أن يكون هذا الحكم صادرًا عن غير ميل أو هوًىٰ، كيف لا؟! وقد احتمل محمد عداء أهله وعشيرته سنوات بصبر وجَلَد عظيمين، ومع ذلك فقد بَلَغ من نُبْلِه أنه لم يكن يسحب يده من يد مصافحه حتىٰ لو كان يصافح طفلاً! وأنه لم يمرَّ بجماعة يومًا من الأيام -رجالاً كانوا أم أطفالاً- دون أن يُسَلِّم عليهم، وعلىٰ

---

(١) - هذا التعداد الذي ذكره غوستاف لوبون كان وقت إصداره لكتابه (حضارة العرب)، أما الآن فقد تجاوز عدد المسلمين في العالم ١,٨ مليار نسمة.

(٢) - حضارة العرب: ص٦٧

(٣) - لين بول (1853-1917 Lane Poole): مفكر إنجليزي، وهو واضع فهرست المسكوكات المحفوظة في دار الكتب المصرية عام ١٨٩٧م، من مؤلفاته: (رسالة في تاريخ العرب).

شفتيه ابتسامة حُلوة، وبنغمة جميلة كانت تكفي وحدها لتسحر سامعيها، وتجذب القلوب إلىٰ صاحبها جذبًا!"[(١)].

٤- الأديب الإنجليزي جورج برنارد شو[(٢)]:

"لقد درست محمدًا باعتباره رجلاً مدهشًا، فرأيته بعيدًا عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يُدْعَىٰ منقذ الإنسانية، وأوربا في العصر الراهن بدأت تعشق عقيدة التوحيد، وربما ذهبت إلىٰ أبعد من ذلك؛ فتعرف بقدرة هذه العقيدة علىٰ حلِّ مشكلاتها، فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي"[(٣)].

٥- المستشرق الإنجليزي الكبير وليم موير[(٤)]:

---

(١) - لين بول: رسالة في تاريخ العرب، نقلاً عن: عفيف عبد الفتاح طبارة: روح الدين الإسلامي ص٤٣٨.

(٢) - جورج برنارد شو (1856-1950 George Bernard Showم): مؤلف إنجليزي مشهور، حاز علىٰ جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٢٥م. وطُلِبَ منه أن يكتب مسرحية عن حياة محمد فرفض، وكان ذلك ضربة قاضية لمن أرادوا تشويه الإسلام. انظر: أحمد حامد: الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء ص١٣-١٥.

(٣) - الحسيني الحسيني معدي: الرسول في عيون غربية منصفة ص٧٠.

(٤) - وليم موير (1819-1905 William Muirم): مؤرِّخ ومستشرق إنجليزي، وكان يبحث في الإسلام ويدرس أخلاق نبي الإسلام منذ بداية وجوده في الهند عام ١٨٣٧م، ودرس الحقوق في جامعتي أدنبره وجلاسجو، ووصل إلىٰ منصب رئيس جامعة أدنبره، انظر: عبد الرحمن

"امتاز محمد بوضوح كلامه، ويسر دينه، وأنه أتم من الأعمال ما أدهش الألباب، لم يشهد التاريخ مصلحًا أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق الحسنة، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد".(١)

"ومهما يكن هناك من أمر فإن محمدًا أسمىٰ من أن ينتهي إليه الواصف، وخبيرٌ به مَنْ أمعن النظر في تاريخه المجيد، وذلك التاريخ الذي ترك محمدًا في طليعة الرسل ومفكري العالم".(٢)

٦- المستشرق الأمريكي واشنجتون إرفنج: (٣)

"كانت تصرفات الرسول في أعقاب فتح مكة تدلُّ علىٰ أنه نبي مرسل، لا علىٰ أنه قائد مظفَّر؛ فقد أبدىٰ رحمةً وشفقةً علىٰ مواطنيه، برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه تَوَّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو".(٤)

بدوي: موسوعة المستشرقين ص٥٧٨، ٥٧٩، وأحمد حامد: الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء ص٢٢، ٢٣.

(١) - وليم موير: حياة محمد ص٣١.

(٢) - المصدر السابق ص٢٠.

(٣) - واشنجتون إرفنج Washington Irving (1783- 1859م): مستشرق ومؤرخ أمريكي، أولىٰ اهتمامًا كبيرًا بالدراسات الإسلامية، من مؤلفاته: (حياة محمد)، (فتح غرناطة). انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون ٣/ ١٣١.

(٤) - واشنجتون إيرفنج: حياة محمد ص٧٢.

٧- رئيس الوزراء الهندي الأسبق جواهر لال نهرو:(١)

"كان محمد كمؤسسي الأديان الأخرىٰ ناقمًا علىٰ كثير من العادات والتقاليد التي كانت سائدة في عصره، وكان للدين الذي بَشَّر به -بما فيه من سهولة وصراحة وإخاء ومساواة- تجاوبٌ لدىٰ الناس في البلدان المجاورة؛ لأنهم ذاقوا الظلم علىٰ يد الملوك الأوتوقراطيين والقساوسة المستبدين، لقد تعب الناس من النظام القديم، وتاقوا إلىٰ نظام جديد، فكان الإسلام فرصتهم الذهبية؛ لأنه أصلح الكثير من أحوالهم، ورفع عنهم كابوس الضيم والظلم".(٢)

٨- المؤرخ البلجيكي جورج سارتون:(٣)

"وخلاصة القول... إنه لم يُتَحْ لنبي من قبلُ ولا من بعدُ أن ينتصر انتصارًا تامًّا

---

(١) - جواهر لال نهرو (J.Lal. Nahro) (1889- 1964م): يعدُّ نهرو أحد زعماء حركة الاستقلال في الهند، وأول رئيس وزراء للهند بعد الاستقلال. تميز بالاشتراكية والعدالة، ولم يكن متعصبًا للهندوسية.

(٢) - جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم ص٢٧.

(٣) - جورج سارتون (George Sarton (1884- 1956م): بلجيكي الأصل، متخصص في العلوم الطبيعية والرياضية، درس العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٣١- ١٩٣٤م، وألقىٰ محاضرات حول فضل العرب علىٰ الفكر الإنساني. أبرز إنتاجه (المدخل إلىٰ تاريخ العلم). انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون ٣/ ١٤٧، ١٤٨.

كانتصار محمد".[١]

٩- مايكل هارت في كتابه "الخالدون المئة" ص١٣، وقد جعل علىٰ رأس المئة سيدَنا محمدا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

"إن اختياري محمداً، ليكون الأول في أهم وأعظم رجال التاريخ، قد يدهش القراء، ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلىٰ نجاح علىٰ المستويين: الديني والدنيوي.

فهناك رُسل وأنبياء وحكماء بدءوا رسالات عظيمة، ولكنهم ماتوا دون إتمامها، كالمسيح في المسيحية، أو شاركهم فيها غيرهم، أو سبقهم إليهم سواهم، كموسىٰ في اليهودية، ولكن محمداً هو الوحيد الذي أتم رسالته الدينية، وتحددت أحكامها، وآمنت بها شعوب بأسرها في حياته. ولأنه أقام جانب الدين دولة جديدة، فإنه في هذا المجال الدنيوي أيضـًا، وحّد القبائل في شعـب، والشعوب في أمة، ووضع لها كل أسس حياتها، ورسم أمور دنياها، ووضعها في موضع الانطلاق إلىٰ العالم. أيضـًا في حياته، فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدنيوية، وأتمها".

١٠- آن بيزينت[٢]:

---

(١) - سارتون: الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط ص٢٨-٣٠.

إلىٰ هنا انتهىٰ النقل من كلام الدكتور راغب السرجاني حفظه الله تعالىٰ في موقعه: قصة الإسلام: http://cutt.us/4mrz

(٢) - في كتابه: حياة وتعاليم محمد دار مادرس للنشر ١٩٣٢

"من المستحيل لأي شخص يدرس حياة وشخصية نبي العرب العظيم ويعرف كيف عاش هذا النبي وكيف علم الناس، إلا أن يشعر بتبجيل هذا النبي الجليل، أحد رسل الله العظماء، ورغم أنني سوف أعرض فيما أروي لكم أشياء قد تكون مألوفة للعديد من الناس فإنني أشعر في كل مرة أعيد فيها قراءة هذه الأشياء بإعجاب وتبجيل متجددين لهذا المعلم العربي العظيم.

هل تقصد أن تخبرني أن رجلاً في عنفوان شبابه لم يتعد الرابعة والعشرين من عمره بعد أن تزوج من امرأة أكبر منه بكثير وظل وفيًا لها طيلة ٢٦ عامًا ثم عندما بلغ الخمسين من عمره – السن التي تخبو فيها شهوات الجسد – تزوج لإشباع رغباته وشهواته؟! ليس هكذا يكون الحكم علىٰ حياة الأشخاص.

فلو نظرت إلىٰ النساء اللاتي تزوجهن لوجدت أن كل زيجة من هذه الزيجات كانت سببًا إما في الدخول في تحالف لصالح أتباعه ودينه أو الحصول علىٰ شيء يعود بالنفع علىٰ أصحابه أو كانت المرأة التي تزوجها في حاجة ماسة للحماية".

١١- الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل[١] الحائز علىٰ جائزة نوبل:

"لقد أصبح من أكبر العار علىٰ أي فرد متحدث هذا العصر أن يصغي إلىٰ ما يقال من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خدّاع مزوِّر. وقد رأيناه طول حياته راسخ

---

(١) – كاتب إسكتلندي وناقد ساخر ومؤرخ. وكان لأعماله تأثير كبير بالعصر الفكتوري، تُوفي عام: ١٨٨١.

المبدأ، صادق العزم، كريماً بَرًّا". (١)

١٤- جوته الأديب الألماني:(٢)

"إننا أهل أوربا بجميع مفاهيمنا، لم نصل بعد إلىٰ ما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدم عليه أحد، وقد نجح محمد الذي أخضع العالم كله بكلمة التوحيد".

"وكَتَبَ الْأُسْتَاذُ إِدْوَارْ مُونْتِيهِ الْمُسْتَشْرِقُ مُدَرِّسُ اللُّغَاتِ الشَّرْقِيَّةِ فِي مَدْرَسَةِ جِنِيفَ الْجَامِعَةِ فِي مُقَدِّمَةِ تَرْجَمَتِهِ الْفَرَنْسِيَّةِ لِلْقُرْآنِ مَا تَرْجَمْتُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ.

(كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا صَادِقًا كَمَا كَانَ أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْقَدِيمِ، كَانَ مِثْلُهُمْ يُؤْتَىٰ رُؤْيَا وَيُوحَىٰ إِلَيْهِ). ا.هـ(٣)

---

(١) - الأبطال ص٥٨-٦٠.

(٢) - كاتب ألمانىٰ كبير، كتب في عدة مجالات، منها الشعر والمسرح والأدب واللاهوت والانسانية والعلوم. تُوفي عام: ١٨٣٢.

(٣) - المنار: ١١/ ١٤٧-١٤٨.

هل نقدم أدلة الشرع أم أدلة العقل؟

قبل أن أجيب علىٰ هذا السؤال لا بدّ أن أذكر أمرًا مهمًّا، وهو أنّ الشرع الحنيف جاء بأحسن الأديان، والأخلاق، والسياسات، والمعاملات، والفصل بين الخصومات، وجاء بالحجج العقليّة علىٰ ذلك ما لا يُمكن لجميع البشر أن يأتوا بمثله.

"وهذا الدين الحق يُعرَف بالعقل أنه هو أفضل الأديان؛ لأن الدين هو الخضوع والانقياد والعمل، فلا بد له من شيئين:

١- من مقصودٍ هو المعبود.

٢- ووسيلةٍ هي الحركة.

فأي معبود يُسَامِي الله؟

وأي قصدٍ للمعبود خيرٌ من أن يكون القاصد ذليلاً له مخلصا له، لا متكبرا ولا مشركًا به؟

وأيُ حركةٍ خيرٌ من فعل الحسنات؟"(١)

والقول بأن تلك الطائفة تحُكّم العقل، أو أنهم عقلانيون، بمعنىٰ أنهم يرجعون للعقل ليكون حاكمًا علىٰ كلّ شيء حتىٰ علىٰ شرع الله: خطأ، فهم إنما يُحكِّمُون

---

(١) - جامع المسائل: ٦/ ٢٦.

أهواءهم لا عقولهم، وإلا فالعقل السّليم لا يُخالف النقل الصحيح.

وإذا حكّم الإنسان عقله متجرِّدًا من الهوىٰ والتقليد والكبر: لم يَحْكُم العقلُ إلا بكلِّ صواب وحقّ في الجملة، وإلا لَمَا أمر الله تعالىٰ بالتفكّر والنظر والتدبّر لمعرفة الحق من الباطل، ولا يكون هذا إلا بالعقل.

وبعد هذه المقدمة نأتي علىٰ هذا السؤال: هل نقدم أدلة الشرع أم أدلة العقل؟

الأصل وجوب تقديم النقل الصحيح الثابت عن الله تعالىٰ وعن نبيّه محمد صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ العقل؛ لأن النقل مقطوع به، بخلاف العقل، والعقول تتفاوت، فأيّ عقل نحكّم عند الاختلاف؟

ونحن نعلم أن الرُّسل – عليهم الصلاة والسلام – لا يخبرون بمحالات العقول، بل بمحارات العقول، فلا يخبرون بما يَعْلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته.

فالنصوص الثابتة في الكتاب والسنة لا يعارضها معقول بيِّنٌ قط، ولا يعارضها إلا ما فيه اشتباه واضطراب.

وما عُلم من الأدلة العقليّة أنه حقّ مقطوع به لا نُنكره ولا ننْفيه، ولا تُعارضه الأدلة الشرعيّة الثابتة في الكتاب والسنة، لكن قد تكون بعضُ الأدلة الشرعيّة غير ثابتة، أو فيها اضطراب واشتباه لم يُعْلم أنها حق، فهذه لا تُعارض الأدلّة العقليّة المعلوم أنها حقّ مقطوع بها".[(١)]

---

(١) – يُنظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٤٦-١٤٧ ، ١٥٥).

هل الإسلام مبنيٌّ على محض الاتباع أم هو مبنيٌّ على العقل؟

هناك سؤال مهم جدًّا يدور في أذهان كثير من الناس، ألا وهو: هل الإسلام مبنيٌّ علىٰ محض الاتباع لتعاليمه، بأن تقول "سمعنا وأطعنا" في كلّ شيء، ولا يعترف بالعقل والنظر والفكر، أم هو دين مبنيٌّ علىٰ العقل؟

والجواب: أنّ البحث عن الدين الحق يعتمد علىٰ العقل، وذلك بالنظر والتفكّر في شرائعه وما يدعو إليه، والعقل السليم يدل الإنسان علىٰ صحة هذا الدين القويم.

وحينما يدخل الإنسان في دين الإسلام الذي هو أصح الأديان وآخرها، ولا يقبل الله دينًا غيره، بقناعة تامّة: يجب عليه التسليم المطلق لكلّ أحكامه وشرائعه.

وسأضرب لذلك مثالا من الواقع: حينما تمرض فإنك ستذهب إلىٰ الطبيب الحاذق، وبعد أن يعطيك العلاج ستأخذه بدون الحاجة لأن تقتنع بصحة الدواء أو تركيبته، فبعقلك اخترت الطبيب، ثم أخذت العلاج بمحض التسليم بتوجيهاته وأوامره.

إذن: العقل والمنطق يستخدم للوصول إلىٰ الإسلام، ثم بعد الوصول والتحقق من صحته بعقلك وفكرك: يكون الاتباع المطلق والاستسلام التامّ، ولن تكون مؤمنًا إلا بهذا، قال الله تعالىٰ: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتىٰ يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾.

وهناك أمور جاء بها الدين لن يستوعبها عقلك، كالحكمة من جعل صلاة

المغرب ثلاث ركعات، والفجر ركعتين، وكبعض الأمور الغيبية، ولكن غالب أحكام الإسلام، والأمور الغيبية: يمكن للمسلم معرفةُ الحكمة والمصلحة منها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِيْ أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيْدٌ﴾:

"الآيات التي يُريها الناس حتىٰ يعلموا أنّ القرآن حق هي آيات عقليّة؛ يَسْتدلّ بها العقل علىٰ أنّ القرآن حقّ.

والقرآن مملوء من ذكر الآيات العقليّة التي يستدلّ بها العقل، وهي شرعيّة؛ لأنّ الشرع دلّ عليها، وأرشد إليها." ا.ه[١]

وانظر إلىٰ موقف الصحابي الجليل أبي بكر الصديق رضي الله عنه في حادثة الإسراء والمعراج، وهو أمرٌ غير معقول بالنسبة للموازين البشريّة، ولكنه رضي الله عنه حينما علم أنّ الرسول صلىٰ الله عليه وسلم قال ذلك صدّق مباشرة بلا تردد ولا نظر ولا تأمل وتفكير؛ لقناعته التامة المطلقة أنه صادق، ولذلك سُمّي بالصديق.

وإذا لم تفهم الحكمة من شيء مما جاء عن الله وعن رسوله صلىٰ الله عليه وسلم فاستحضر هذه الأمور الثلاثة:

الأمر الأول: أنّ الله بكل شيء عليم.

الأمر الثاني: أنّ الإنسان ليس بكلّ شيء عليم.

الأمر الثالث: أنّ ما يأتي من الله تعالىٰ فهو الأفضل؛ لأنه يعلم ونحن لا نعلم.

---

(١) - النبوات: ٢٩٣.

ولتقريب الصورة: تخيل أن يرجع بك الزمن إلىٰ العصر الحجري، ثم تشرح للناس ما يوجد بعد آلاف السنين، من الهواتف، والأقمار الصناعية، والطائرات التي تحلق فوق السحاب، والركاب يحتسون القهوة ولا تضطرب الأكواب التي يشربون بها، وغيرها من المخترعات العجيبة، والصناعات الغريبة، فلن يصدقوا، ولن يقتنعوا، مع العلم أنها هي الحقيقة، وكونهم لم يقتنعوا لا يغير من الحقيقة شيئًا، ولو صدّقوك فسَيُفَسّرون ذلك بأنه سحر.

حتىٰ لو جاء أديب بليغ وشرح لهم ذلك لأمسك النقّاد بتلابيبه وقالوا: إن الخيال مقبول، ولكن إن بلغ هذا المبلغ صار من التوهّم المرذول، وصار صاحبه محموماً يهذي لا أديباً يتخيّل.

العاقل يختار الطريق الذي يسلك به إلى السلامة أو الغنيمة، على الطريق الذي يسلك به إلى السلامة أو الهلاك

من الأمور الْمُسلّمة والبَدَهيّة والعقليّة أنّ من سلك طريقًا ثم تفرّع إلىٰ طريقين مختلفين:

الطريق الأول: ينتهي به إلىٰ السلامة أو الغنيمة.

الطريق الثاني: ينتهي به إلىٰ السلامة أو الهلاك.

فإنّه سيختار – بلا شك – الطريق الأول.

وهناك طريقان بالنسبة للإيمان بالبعث:

الطريق الأول: ينتهي بك إلىٰ السلامة أو الغنيمة، وهو أن تُؤمن بذلك وتصدّق، وتتمسك بالدين الحقّ، فإنك بين أمرين:

- إما أن لا يكون هناك بعث ولا حساب في الحقيقة، فقد سلمت.
- وإما أن يكون هناك بعث وحساب، فقد غنمت ونجوت وفزت؛ لأنك عملت واجتهدت واستعددت لهذا اليوم.

الطريق الثاني: ينتهي بك إلىٰ السلامة أو الهلاك، وهو ألا تؤمن بذلك ولا تصدّق، ولا تتمسك بالدين الحقّ ولا تبحث عنه، فإنك بين أمرين:

- إما أن لا يكون هناك بعث ولا حساب في الحقيقة، فقد سلمت.

- وإما أن يكون هناك بعث وحساب، فقد هلكت وخسرت.

هذا من جهة المنطق العقلي، ونحن نوقن يقينًا لا يتطرقه شكّ بأنّ هناك بعث وحساب، وأن مَن آمن بالله وأطاعه دخل جنة عرضها السماوات والأرض، وأنَّ مَن كَفَر به دخل نارًا تلظّىٰ، ﴿لا يصلاها إلا الأشقىٰ، الذي كذب وتولىٰ﴾.

وإذا داخلك شكّ في هذا الطريق، فإنه سيبقىٰ أن هناك احتمال أن يكون صحيحًا، وليس من العقل إلغاءُ وتجاهل احتمالِ - ولو بنسبة قليلة – وقوع ضرر كبير عليك وأنت قادر علىٰ اجتنابه والسلامة منه، ولا يكلّفك عناءً وتعبًا، بل من المتفق عليه أنّ السعادة والراحة والطمأنينة النفسية في هذا الطريق لا في سواه.

وسوف ترىٰ الأدلة العقلية علىٰ هذا الطريق وصحته بمشيئة الله تعالىٰ.

فإياك أن تفرط وتسوّف وتتجاهل مصيرك، فلا تدري متىٰ يتخطّفك الموت، وتندم ندمًا لا ينقضي ولا ينقطع.

حججٌ عقليّةٌ تزيد المؤمن إيمانًا، وتُزيل شُبَه وشكوك من شكّ في وجود اللّه سبحانه وتعالى أو في صدق نبوّة النبي محمد صلى اللّه عليه وسلم أو الوحي الذي أُنزل عليه

كل من سلِم من الهوىٰ والتقليد الأعمىٰ، وأعمل عقله وتفكر بحياد: دلّه عقله علىٰ الدين الصحيح، والمنهج الواضح في الاعتقاد والأخلاق والتعامل.

وإليك هذه الحجج العقليّة التي تزيد المؤمن إيمانًا، وتُزيل شُبَه وشكوك من شكّ في وجود الله سبحانه وتعالىٰ أو في صدق نبوّة النبي محمد صلىٰ الله عليه وسلم أو الوحي الذي أُنزل عليه:

الحجة الأول: كلُّ عاقلٍ يعلم بداهةً حينما يرىٰ آلةً مصنوعة أنّ لها صانعًا، ولا يخطر في باله أن يعرف أسرار تشغيلها وما بداخلها كي يستدل علىٰ وجود صانع لها، ولو فعل ذلك لاتّهمه الناس في عقله.

ولله المثل الأعلىٰ، فهذه المخلوقات البديعة الدقيقة، من الكائنات الحية، والسماوات الواسعة العريضة، والأكوان العجيبة، والبحار التي تحوي عجائب الخلق: ألا تدل علىٰ أنّ لها صانعًا؟

ولذلك أكْثَر الله تعالىٰ من الأمر بالتفكر في آياته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢)

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾.

وهذه الآيات يكاد يتفق عليها الناس، ولا تحتاج إلىٰ مزيد بحث واستقصاء، ونظر وعلم.

ولذلك كان أنبياء الله عليهم السلام يحتجون علىٰ أقوامهم بخلق السموات والأرض، قال تعالىٰ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

فإذا كان مِن السفه وقلَّةِ العقل السؤالُ عن تفاصيل الصناعة البشرية لأجلِ التصديقِ بأنَّ لها صانعًا، فالسؤال عن تفاصيل الصناعة الربانية والآيات الكونية أشدّ في السّفه وقلّة العقل.

وإذا كانت الآيات الكونيةُ شاهدةً ودالةً علىٰ عظمةِ وجلالةِ وحكمةِ الله تعالىٰ، فكيف بآياته الشرعية؟

فهي والله أعظم دلالة، وأقوىٰ بيانًا علىٰ عظمة الخالق وحكمته وإتقانه سبحانه وتعالىٰ.

الحجة الثانية: يُقال لمن نفىٰ وجود الله لأنه لم يره: كيف تستدلّ علىٰ وجود عقلك ومخك وأنت لم تره؟

سيقول: أستدل علىٰ وجود وكمال عقلي بأفعالي وتصرفاتي.

فنقول له: ونحن نستدل علىٰ وجود الله بأفعاله وخلقِه وبديعِ صنعه، وعظمةِ شرعِه، وبلاغة وكَمَال كلامِه في كتابِه القرآن الكريم المحتوي علىٰ أعلىٰ صنوف البلاغة والبيان، وأتمّ وأحسن الوصايا والشرائع والأحكام، وأنسبها للبشريّة، وأحكمها وأفضلِها.

ألا يدلّ كلّ هذا علىٰ وجود الربّ الحكيم اللطيف الخبير؟

الحجة الثالثة: يُقال لمن يشكّك في نبوّة النبي محمد صلىٰ الله عليه وسلم: عاتب الله تعالىٰ في القرآن النبي صلىٰ الله عليه وسلم في عدّة مواضع، منها قوله تعالىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا﴾.

أي: "كَلا، ما الأمر كما تفعل يا محمد من أن تعبس في وجه من جاءك يسعىٰ وهو يخشىٰ، وتتصدّىٰ لمن استغنىٰ".(١)

وقوله تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ

(١) - تفسير الطبري ٢٤/ ٢٢٠- ٢٢١.

فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَىٰ النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

فهل يُعقل أنْ يأتي رجلٌ يدّعي النبوّة وأنه نزل عليه كتاب من الله يُؤيّده ويحث الناس علىٰ اتباعه، ويقرأ علىٰ الناس عتاب الله له؟

هذا لا يكون إلا من رجل صادق، قد جمع الله له نواحي الصِّدْق والأمانة والثقة بالنفس، ولا يدّعي شيئًا من عنده، ولا يُخفي شيئًا مما أنزل الله عليه لتبليغه، ولو كان مما يستثقله عامة البشر في حقّهم وعن ذواتهم، بل هو مبلّغ عن الله.

بخلاف من يدّعي النبوة وهو كاذب وأن الله أنزل عليه القرآن فلن يجعل في القرآن إلا ما يحثّ علىٰ طاعته، ولن يُطيل الكلام في تفاصيل الأحكام الشرعيّة، وقصص الأنبياء، وأحوال الناس بعد الموت.

ومن يدّعي النبوة وهو كاذب سيكون همّه جمعَ المال وتثبيت دعائم ملكه بتولية أقاربِه، ولكن النبي صلىٰ الله عليه وسلم لم يجمع مالا، بل قال بكلّ صراحة: «لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ».(١)

وكان يأمر أبا بكر رضي الله عنه أن يصلي بالناس إذا غاب، وهو ليس من قراباته، ولم يأمر عليًّا ولا العباس وغيرهما من أقاربِه رضي الله عنهم، بل قال بكلّ وضوح في مرض موتِه: "لقد هممت أن أرسل إلىٰ أبي بكر وابنه فأعهد - أي: بالخلافة-،

(١) - رواه مسلم (١٧٥٧).

أن يقول: القائلون أو يتمنىٰ المتمنون، ثم قلت: يأبىٰ الله ويدفع المؤمنون".[١]

الحجة الرابعة: يُقال لمن يشكّك في أن القرآن الكريم منزل من العزيز الحكيم: كثيرًا ما يختم الله تعالىٰ آيات القرآن بقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾، وذلك لأن الله تعالىٰ هو الذي تكلّم به، وكلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكلامه بلغ الغاية في البلاغة، والفصاحة، والبيان، والإعجاز، والصدق، ولا يدانيه أيُّ كلام، فحثّ كلَّ من قرأه علىٰ البحث والنظر والتأمل في آياته المحكمة، والتفكر والتدبر في أحكامه وأخباره الباهرة؛ بل إنَّ الله تعالىٰ تدرج في تحدي جميع الفصحاء والبلغاء أن يأتوا بمثله، ثم بعشر سور مثله، ثم بسورة واحدة فقط.

وهذا تنزلاً منه سبحانه وتعالىٰ القادر المقتدر لعباده الضعفاء المساكين، وهكذا - ولله المثل الأعلىٰ - لا يتحدىٰ أحدٌ من البشر غيره بشيء من الصناعات ونحوها إلا مَن كان واثقًا مما يقول، ولا أحدَ يعرض بضاعته لأهل الخبرة والصَّنْعة، ويطلب منهم أنْ يفتِّشوا فيها، ويتحداهم أن يجدوا فيها خللا وعيبًا، إلا من كان واثقًا أشدّ الثقة بجودة بضاعته، فكيف بكلام رب العالمين، الذي جعل كلامه المنزل علىٰ رسوله معجزةً دائمةً ما دامَت السموات والأرض.

فالقرآن "يحرّض الإنسان علىٰ أن يتذكر، ويتفكر، ويعتبر، ولو كان القرآن يريد أن يخدع الإنسان، لما أثار انتباهه إلىٰ ضرورة التذكر والتفكر والتدبر والاعتبار.

---

(١) - رواه البخاري (٥٦٦٥).

والمُنْصف بالحق يُهِمه أن يستقبل الناس ما يعرضه عليهم بالعقل، عكس المدلس الذي يهمه أن يستر العقل جانبًا؛ لينفُذَ من وراء العقل.

وفي حياتنا اليومية حين ينبهك التاجر لسلعة ما، ويستعرض معك مَتَانتها ومحاسنها؛ فهو يفعل ذلك كدليل علىٰ أنه واثق من جودة بضاعته.

أما لو كانت الصَّنْعة غير جيدة، فهو لن يدعوك للتفكير بعقلك؛ لأنك حين تتدبر بعقلكَ الأمر تكتشف المُدلس وغير المُدلس؛ لذلك فهو يدلس عليك، ويُعمِّي عليك، ولا يدع لك فرصة للتفكير.

هذا ما يحدث فيما بين البشر، فما بالنا حين يعرض خالق الكون علىٰ مخلوقاته أسرار الكون ويدعوهم عبر منهجه إلىٰ التذكُّر والتعقُّل والتفكُّر والتدبُّر والاعتبار.

والحق سبحانه يطلب منا ذلك ثقة منه في أن الإنسان إن فعل ذلك فسيصل إلىٰ مراد الحق من الخلق.

وهذا دليل علىٰ أننا لو بحثنا هذه الآيات لتوصَّلْنا إلىٰ مطلوبه سبحانه، وهو الإيمان.

ولو تعقلتَ، لو تدبرتَ، لو تذكرتَ، لاهتديت إلىٰ ما جاء به القرآن".[(١)]

الحجة الخامسة: يُقال لمن يشكّك في أنّ الإسلام هو الدين الصحيح، الذي يجب اتباعه والدخول فيه: من المعلوم عند جميع علماء التاريخ العامّ - ولا سيما تاريخ الأديان - أنه لا يوجد دينٌ منقول عمن جاء به مِن رسل الله تعالىٰ أو مِن غيرهم نقلاً

---

(١) - تفسير الشعراوي (٩/ ٥٧١٧، ١١/ ٦٨٢٨، ١٧/ ١٠٣٩٩، ١٨/ ١١٣٧٧).

صحيحًا متواترًا بالقول والفعل، متّصل الأسانيد إلا دين الإسلام.

ولهذا فإنك ترىٰ آلافَ قرّاء القرآن ينقلون القرآن شيخًا عن شيخ، وقارِئا عن قارئ، إلىٰ النبيّ محمد صلىٰ الله عليه وسلم، فلا يكون قارِئًا تُؤخذ عنه القراءة إلا إذا أخذ القرآن عن قارئ قرأ علىٰ شيخِه، وشيخُه قرأه علىٰ شيخِه، حتىٰ ينْتهي إلىٰ النبيّ محمد صلىٰ الله عليه وسلم.

وعند كثيرٍ مِن أهل العلم المسلمين أحاديث عن محمد صلىٰ الله عليه وسلم رووها بأسانيدهم المتّصلة عنه.

وقد رويتُ أنا – بحمد الله – القرآنَ بإسنادٍ متّصل إلىٰ نبيّنا محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ورويتُ كذلك بعضَ الأحاديث بإسنادٍ متصل إلىٰ نبيّنا محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ولولا خوف الإطالة لذكرتُ الإسناد، ولكن هذا معروفٌ عند جميع طلاب وعلماءِ المسلمين.

وقد ثبت بما لا يدَع للشّك مجالًا تحريفُ كتب التوراةِ والإنجيل، ولا يُوجد ليهوديّ واحدٍ إسنادٌ متّصل إلىٰ النبيّ موسىٰ عليه السلام، ولا يُوجد لنصرانيّ واحدٍ إسنادٌ متصل إلىٰ النبي عيسىٰ عليه السلام.

ومن اللطائف: أنّ فيلسوفًا هنديًّا درس تواريخ الأديان كلها، وبحث فيها بحثَ حكيمٍ منصف لا يريد إلا معرفةَ الحق، وأطال البحث في النصرانية؛ لِمَا للدول المنسوبة إليها من الملك وسعة السلطان، ونظر بعد ذلك كلّه في الإسلام، فكانت غاية ذلك الدرس أن عرف بالبرهان الواضح أنّ الإسلام هو الدين الحق، فأسلم

وألّف كتابًا باللغة الإنجليزية عنوانه (لماذا أسلمت)، أظهر فيه مزاياه علىٰ جميع الأديان، وكان من أهمها عنده أنه هو الدين الوحيد الذي له تاريخ ثابت محفوظ. وكان من مثار العجب عنده أنْ ترضىٰ أوربا – شعوبًا وحكّامًا، جهّالا ومتعلّمين – لنفسها دينا ترفع من تنسبه إليه عن مرتبة البشر فتجعله إلها، وهي لا تعرف من تاريخه شيئا يعتد به.

واعلم أنّ دين الإسلام دين العقل الصحيح والفطرة السليمة، وكلّ من خالف ما فيه فليس معه إلا شُبَهٌ وظنون وشكوك، وصدق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حين قال: "المخالفون للكتاب والسنة والإجماع، والْمُدَّعون حصول القواطع العقلية: إنما معهم شُبَهُ المعقولات لا حقائقها".(١)

(١) – جامع المسائل ١/ ٦٤.

الأدلة العقلية على القضاء والقدر

الإيمان بِالْغَيْبِ: هو أعظمُ ما يتميَّزُ به المسلمُ عنِ الكافر، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله تعالىٰ به، أو أخبر به رسوله صلىٰ الله عليه وسلم، سواءٌ شاهده أو لم يشاهده، وسواءٌ فهمه وعرف حكمته، أو لم يهتد إليه عقلُه وفَهْمُه.

وممَّا يدخُلُ بالإيمان بِالْغَيْبِ: الإيمانُ بالقضاء والقدر، الذي هو من أعظمِ أركان الدين، ومِن أوجبِ الواجبات التي فرَضَها ربُّ العالمين، قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: « الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».(١)

ومعنىٰ الإيمان بالقضاء والقدر: أن تؤمن بأنَّ كلَّ ما في الكون، من مَوجوداتٍ ومَعدوماتٍ عامةٍ وخاصةٍ، فإنه بمشيئة الله وتقديره، وتعلمَ أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

والإيمان بالقدر يقوم علىٰ أربعة أركان، تُسمىٰ مراتبَ القدر، ولا يتم الإيمان به إلا بتحقيقها كلِّها.

المرتبة الأولىٰ: العلم: وهي أنْ تؤمن بعلم الله المحيطِ بكلِّ شيءٍ، وأنه لا يكون شيءٌ إلا بعلمه ودرايته.

---

(١) – رواه مسلم (١٠٢).

قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

ولْنتأمل فيما بين أيدينا من أجهزة الحاسب، والشبكةِ العنكبوتية، وكيف تُحصي آلافَ المعلومات، وهي مُخزَّنةٌ لديها منذ عشرات السنين، لم تلْتبس معلومةٌ بأخرىٰ، ولم تَفْسُدْ من كثرةِ ما يُوضَعُ فيها.

تأمل في الهاتف الجوال الذي معك، وكيف تكلِّم من شئت في أيِّ مكانٍ في العالم، دون أسلاكٍ وتوصيلات، وإنما هي ذبذباتٌ في الهواء، لم تتصادم المكالماتُ بعضُها مع بعض، تأمَّل كيف تُكلِّمه وهو في آخر الأرض، فيردُّ عليك خلال ثوانٍ معدودة، ويُريك نفسه وما حوله عبر شاشةٍ صغيرة، بل وأعجب من ذلك: أنهم لو أرادوا مكالمةً لأحضروها، ولو كانت قبل عدَّة سنوات، وكلُّ هذا وهو صُنْعُ البشر، فكيف بالجبار والقهار الْمُقتدر.

وصدق الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

المرتبة الثانية: الكتابة: وهي الإيمان بأن الله تعالىٰ كتب ما سبق به علمُه، مِن مقادير الخلائق إلىٰ يوم القيامة في اللوح المحفوظ.

وهذه المرتبةُ لا يتمُّ الإيمان بدونها، ولا يستقيم للعبد إسلامٌ إلا بها.

تأمل قول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ﴾.

ما أصرحها من آيةٍ وأوضحها، بأنَّ الله جلَّ جلاله يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، من صغير وكبيرٍ، ودقيقٍ وجليل، لا تخفىٰ عليه خافية، والسرُّ عنده علانية، يعلم عدد قطر الأمطار، وما يكون في البحار والأمصار، وعلمه هذا كلُّه قد أثبته في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، حين خلق الله القلم فقال له: "اكتب"، قال ما أكتب؟ قال: "اكتب ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة".

ثم ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ﴾.

فهو يسيرٌ علىٰ الله تعالىٰ، أليس مَن يعلم ما كان وما سيكون، يسيرٌ عليه كتابةُ علمه؟، بلىٰ والله.

أليس اللهُ الذي خلقنا وخلق كلَّ شيءٍ، والذي يعلم السر وأخفىٰ: يعلم ما سوف نعمله من أعمالٍ صالحةٍ أو سيئة؟ بلىٰ، فإذا كان يعلم ذلك: فهو قادرٌ علىٰ كتابة علمه، ولذلك قال محمد بن سيرين رحمه الله: "ما يُنْكِرُ قومٌ أنَّ الله عز وجل عَلِمَ شيئًا فكتبه؟"(١)

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "إن الله خلق الخلق، وعلم ما هم عاملون، ثم قال لعلمه: كن كتابًا، فكان كتابًا".(٢)

فهو سبحانه عَلِمَ ما سيكونُ فكتبه وأملاه في اللوح المحفوظ، وليس معنىٰ كتب: أوجب وألزم، بل أملىٰ عِلْمَه وأثبته.

---

(١) - الشريعة ٣٣٠.

(٢) - فتاوىٰ شيخ الإسلام ٧/ ٣٨٤.

ولو مسكت بكأس وقلت لمن عندك سأرمي الكأس علىٰ أرض صلبة، وقبل أن أرميه اكتب ماذا سيحدث، فكتب: سيرمي محمد الكأس علىٰ أرض صلبة، ثم سينكسر وستتبعثر أجزاء الكأس.

فالكتابة سابقة لِما سيحصل، فهل حينما أسقط الكأس وحصل ما كتبه يكون قد ألزمه بكسر الكأس؟

لا، بل كتب علمه، ولا علاقة لذلك بإلزامه ولا إجباره.

وهكذا مسألة كتابة الله لمقادير الخلق، فهو تعالىٰ علم ما هم عاملون، فكتب علمه تعالىٰ.

واعلم أنّ المكتوب نوعان:

النوع الأول: مكتوب في صحف الملائكة، وهذا المكتوب والمقدّر يمحو الله ما يشاء منه ويثبت.

النوع الثاني: مكتوب في اللوح المحفوظ، وهذا لا يتغيّر ولا يُبدّل، قال الله تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾: فالأقْدار التي في صحف الملائكة يَنْسخُ اللهُ ما يشاءُ منها ويُثبتُ منها ما يشاءُ.

وقد نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله عن أحد العلماء أنه قال في قول النبي صلىٰ الله عليه وسلم: "من أحب أن يبسط له رزقه وينسأ له في أجله، فليصل رحمه"(١) المكتوب عند الملك الموكل به غير المعلوم عند الله عز وجل، فالأول يدخل فيه

(١) - صحيح ابن حبان (٤٣٨) ،وأخرجه البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧) باختلاف يسير.

التغيير.

ثم شرح هذا الكلام فقال: المعاملات علىٰ الظواهر، والمعلوم الباطن خفي لا يُعَلّق عليه الحكم، فذلك الظاهر الذي اطلع عليه الملك هو الذي يدخله الزيادة والنقص والمحو والإثبات.

والحكمة فيه إبلاغ ذلك إلىٰ المكلف ليعلم فضل البر وشؤم القطيعة.

المرتبة الثالثة: المشيئة: وهي الإيمانُ بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون، ولا هداية ولا إضلال، إلا بمشيئته تعالىٰ.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وقال تعالىٰ:﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾.

فالعبد له مشيئة وإرادة، ولكنها تحت مشيئة الله عز وجل، فلو شاء العبد أمرًا مثل السفر، فهذا السفر شاءه العبد، فإذا شاءه الرب مكَّنه منه وهيَّأ له الأسباب، ونفَىٰ عنه الموانع.

وإذا لم يشأ الله له السفر لم يمكّنه منه، كأن لا يهيئ له الأسباب، أو يُوجِد مانعًا يمنعه من السفر ويصرفه عنه.

وهذه المشيئة التي ينتج عنها العمل يُجَازىٰ عليها العبد، إما ثوابا وإما عقابا، بحسب نوع العمل.

ومما يشكل علىٰ بعض الناس: أنه كيف يُتصوّر أن تكون مشيئتنا داخلة تحت

مشيئة الله؟ وكيف لا نشاء إلا أن يشاء الله؟ ومعنىٰ هذا أن نكون مسيرين لا مخيرين.

وسأضرب مثالا يزيل الإشكال بحول الله: لو أن لصًّا أراد أن يسرق بيتًا، فعلمت الشرطة بذلك، فأخذت تراقبه ولم توقفه ولم تقبض عليه، بل تركته، فذهب وقفز سور المنزل، ثم عالج الأبواب ففتحها، ثم عالج أبواب الخزنة، كلُّ هذا تحت نظر وسمع الشرطة وتحت مشيئتها، ولو أرادت لمنعته وصرفته عن هذا العمل، ولكنها شاءت أن يسرق حتىٰ تمسك به متلبسا بالجرم المشهود، ثم توقع عليه أشد العقوبة.

فلما خرج اللص من المنزل متلبسا بفعلته النكراء، ألقت القبض عليه، ثم جازته علىٰ سرقته، فهل لهذا اللص أن يعترض ويقول: لقد علمتم أني سأسرق، ومكنتموني من ذلك، فأنتم شئتم السرقة؟ لا، بل سيُجيبه رجال الشرطة بقولهم: نحن لم نُجْبِرْك علىٰ السرقة، وأنت تعرف أن السرقة ممنوعة، وأن السارق يعاقب، فأنت سرقت بإرادتك ومشيئتك.

فإرادةُ السارق تحت إرادة الشرطة، كلُّ واحدٍ منهما له إرادةٌ، فالسارق سرق بإرادته، والشرطة مكنته من السرقة بإرادتها، ولو شاءت لمنعته، ولكن لم تفعل ذلك: لتُقيم عليه الحجة، ولتُمسكه مُتلبِّسًا بجريمته.

وإرادة الشرطة لسرقة اللص ليس إرادة حبّ، فهي لا تحب أن يكون هذا الرجل شريرًا، بل تحب أن يكون صالحًا، لكنه أبىٰ إلا طريق الشر.

ومثال آخر: لو أن دولةً منعت رعاياها من السفر إلىٰ دولة معينة، وأن من يسافر إليها ستُوقع عليه أشد العقوبة، فقام شخص من الناس واستصدر تذكرة ثم توجّه

إلىٰ المطار ثم سافر إلىٰ تلك الدولة، كلُّ هذا ودولته تعلم عنه ولكنها تركته لتعاقبه، فلما عاد أُلقي عليه القبض، فلما علم أن دولته تعلم عن سفره ولم تمنعه، اعترض قائلاً: أنتم سمحتم لي ولم تمنعوني من السفر، فقالت له دولته: صحيحٌ أنك سافرت تحت مشيئتنا، ولو أردنا لمنعناك، ولكننا تركناك تفعل ما تشاء لكي نُقيم الحجة عليك، ونُمسكك مُتلبِّساً بفعلك، ثم نعاقبك بما تستحقّ.

وإرادة الدولة لسفر الرجل ليس إرادة حبّ، فهي لا تحب أن يُخالف هذا الرجل القوانين، بل تحب أن يكون مواطنًا صالحًا متبعا للنظام، لكنه أبىٰ إلا طريق الخطأ.

ولله المثل الأعلىٰ، فالعبد له إرادة ومشيئة، ولله إرادة ومشيئة، فالعبد يفعل ما يشاء باختياره وإرادته، لكنه تحت مشيئة الله تعالىٰ ونظره وإحاطته، فإن أراد مَنْعَه مَنَعه، وإن أراد هدايته يسَّر له الأسباب، وفتح له الأبواب، وإن أراد خذلانه، تركه ونفسه، ولم يمنع الشياطين من التسلط عليه.

والله تعالىٰ يقول: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾، فأثبت للعبد مشيئة، ولكنها تحت مشيئة الله تعالىٰ.

وإرادة الله ومشيئته لضلال الضال وكفر الكافر ليست إرادة ومشيئة حبّ لضلاله وقصد لإغوائه، بل هي الإرادة والمشيئة الكونية القدريّة.

فقد قال الله تعالىٰ في الإرادة الدينية : ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥].

وقال في الإرادة الكونية : ﴿وَلَو شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [

البقرة : ٢٥٣]، وقال : ﴿فَمَن يُرِد اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥].

وقال تعالىٰ في القضاء الديني : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٢٣] أي : أمر.

وقال تعالىٰ في الكوني : ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : ١٢].

المرتبة الرابعة: **الخلق**: وهي أنْ تؤمن بأن جميع الكائنات مخلوقةٌ لله، وأنَّ الله تعالىٰ خلق كلَّ شيءٍ من العدم.

قال الله تعالىٰ: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

فعلم سبحانه ثم كتب فشاء فخلق.

لا تجعل عقلك يخوض في البحث عن ذات الله وكيفية صفاته تعالى

كل عضوٍ من أعضائك إذا حمّلته فوق طاقته فسد، وكذلك دماغك، فإذا جعلته يخوض في كلّ شيء فقد حمّلته فوق طاقته، وسوف يفسد عمله، ويتعطّل تفكيره السليم.

فإياك أنْ تجعله يُفكرّ فيما لا يحتمله، ولو فكر فيه لاضطرب، كالتفكير في ذات الله تعالىٰ، فكيف تفكّر في أمرٍ لا يُمكنك التوصل إليه بحواسك أو بنصوص صحيحة عن الرُّسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟

وهل أنت تفكّر في كيفية إجراء مكالمة صوتية أو مرئية مع صاحبك الذي يبعد عنك آلاف الأميال؟

هل تمتنع عن الاتصال به حتىٰ تقف بنفسك علىٰ كيفية ذلك؟ وهل تساءلت يوما عن كيفية سماع صوته ورؤيته بضغطة منك علىٰ زرّ فقط، وهل الهواء نقل صوته وصورته وكلامه؟

قال بعض الحكماء : "لا ينبغي لعاقل أن يعرض عقله للنظر في كل شيء، كما لا ينبغي أن يضرب بسيفه كل شيء".

ووالله لو مكثت سنوات لتقف بنفسك وحواسك علىٰ كيفية ذلك لَمَا استطعت،

فلماذا تظل تتساءل عن ذاتِ الله العليّ الأعلىٰ؟

ولذلك قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: "لا يزال الناس يتساءلون حتىٰ يقال: خَلَقَ اللهُ الخلْق، فمن خَلَقَ اللهَ؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل: آمنت بالله ".(١)

وقال صلىٰ الله عليه وسلم: " يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ حتىٰ يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك، فليستعذ بالله ولينته".(٢)

وقد وجد الصحابة رضي الله عنهم في نفوسهم مثل هذا، فجاؤوا إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان».(٣)

أي: أن دفعكم لهذا الوسواس الشيطاني دليل علىٰ كمال إيمانكم بالله تعالىٰ.

وكذلك لا يحق لعقلك أن يخوض في صفات الله تعالىٰ، بل الواجب عليك أنّ تُؤمن بأنّ لله صفات تليق به، من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تشبيه ولا تمثيل.

قال القرطبي المالكي رحمه الله: "إن هؤلاء المتكلمين قد ارتكبوا أنواعا من المحال لا يرتضيها البُلْه، ولا الأطفال لما بحثوا عن تحيز الجواهر، والأكوان والأحوال.

ثم إنهم أخذوا يبحثون فيما أمسك عن البحث فيه السلفُ الصالح، ولم يوجد

---

(١) – رواه البخاري (٧٢٩٦)، ومسلم (١٣٤).

(٢) – رواه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٣) – رواه مسلم (١٣٤).

عنهم فيه بحث واضح، وهو كيفية تعلقات صفات الله تعالىٰ، وتقديرها، واتخاذها في أنفسها، وأنها هي الذات أو غيرها، وأن الكلام هل هو متحد أو منقسم..

إلىٰ غير ذلك من الأبحاث المبتدعة التي لم يأمر الشرع بالبحث عنها، وسكت أصحاب النبي صلىٰ الله عليه وسلم ومن سلك سبيلهم عن الخوض فيها؛ لعلمهم بأنها بحث عن كيفية ما لا تعلم كيفيته؛ فإن العقول لها حدٌّ تقف عنده، وهو العجز عن التكييف لا يتعداه، ولا فرق بين البحث في كيفية الذات وكيفية الصفات، ولذلك قال العليم الخبير : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

ولا تبادر بالإنكار؛ فإنك قد حُجبت عن كيفية حقيقة نفسك مع علمك بوجودها، وعن كيفية إدراكاتك، مع أنك تدرك بها ، وإذا عجزت عن إدراك كيفية ما بين جنبيك، فأنت عن إدراك ما ليس كذلك أعجز.

وغاية علم العلماء وإدراك عقول الفضلاء أن يقطعوا بوجود فاعل هذه المصنوعات منزه عن صفاتها، مقدس عن أحوالها، موصوف بصفات الكمال اللائق به." ا.ه[١]

---

(١) - المفهم (٦/ ٦٩٠-٦٩٤).

نماذج من المشاهير المثقفين الذي أنهوا حياتهم بالانتحار بسبب تلوّث عقولهم وضيق صدورهم

العقل ضعيفٌ لا يتحمَّل أنْ يستوعب شيئًا فوق قدراته، وقد قال بعض الحكماء: من لم يحترز بعقله من عقله هلك بعقله.

وهذا كلام في غاية الحُسن.(١)

فلو رجعنا للمثال السابق، وهو أنه لو قيل لرجلٍ قبل مِائتي سنة: سنريك الآن شيئًا نضعه في أيدينا يعرض لنا ما يحدث في الجهة المقابلة لنا من الكرةِ الأرضيةِ، وسنتحدث مع أناسٍ هناك، فهل سَيُصدِّقُ ذلك؟ لا يمكن، وسيراه من المحال، ونحن نراه الآن من البَدَهيَّات، فإيَّاك أنْ تسمحَ لعقلك أنْ يتشرَّب كلَّ شيءٍ، فلقد رأينا من فعل ذلك أصابته أمراضٌ نفسية، ووساوس قاتلة، أدَّت بكثيرٍ منهم إلىٰ الانتحار، إنها نهايةٌ طبيعيةٌ لمن أعرض عن دين الله وشرعه الذي هو المناسب لطبيعة البشر.

وخذ أمثلةً لمشاهير المثقفين الذي أنهوا حياتهم بالانتحار:

١-إسماعيل أدهم: وهو كاتب مصري حصل علىٰ الدكتوراة في علوم الرياضيات من روسيا، صاحب كتاب: (لماذا أنا ملحد)، انتحر عام ١٩٤٠م.

---

(١) - الآداب الشرعية ٢/ ١٣٥.

٢- تيسير سبول: وهو روائيٌّ أردنيٌّ، له رواية (أنت منذ اليوم) انتحر قبل بلوغه سنّ الأربعين.

٣- أروىٰ صالح: وهي كاتبةٌ مصريةٌ وناشطةٌ سياسيةٌ.

٤- عنايات الزيات: وهي كاتبةٌ وناشطةٌ مصرية.

٥- أرنست همنغواي: وهو الكاتب الروائيُّ الأمريكي المشهور، فائز بجائزة نوبل العالمية، مات برصاصة من بندقيته أطلقها علىٰ نفسه.

وغيرهم كثير، وأنت لست أذكىٰ ولا أكثر ثقافةً منهم.

وصدق الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾.

توجيهات هامّة ينبغي أن يعتني بها من يُحاور ويُناقش ملحدًا أو مشكّكًا في الدين

١ - ابدأ مع مَن تناقشه مِن الأساس ومن أول نقطة، ثم تسلسل معه حتىٰ يصل إلىٰ مكان إشكاله.

فإذا بدأت نقاشك معه مع أشياء يُسلّم بها، ويُقرّ بصحتها: سهل إقناعه في الأمور التي يعترض عليها.

٢- لا تستدلّ عليهم بأدلةِ الكتاب والسنة، فهم لا يُؤمنون بها، ولو لم يُنكروها صراحةً، بل ينبغي أنْ يكون الاستدلال بالمنطق والعقل.

وفي هذا يقول الشاطبي رحمه الله تعالىٰ: "إِذَا كَانَتِ الدَّعْوَىٰ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ دَلِيلٍ، وَكَانَ الدَّلِيلُ عِنْدَ الْخَصْمِ مُتَنَازَعًا فِيهِ: فَلَيْسَ عِنْدَهُ بِدَلِيلٍ؛ فَصَارَ الْإِتْيَانُ بِهِ عَبَثًا لا يفيد فائدة ولا يحصل مقصودًا، ومقصودُ المناظرة رَدُّ الْخَصْمِ إِلَىٰ الصَّوَابِ بِطَرِيقٍ يَعْرِفُهُ..

فَلَا يُؤْتَىٰ فِيهِ إِلَّا بِدَلِيلٍ يُقِرُّ الْخَصْمُ بِصِحَّتِهِ شَاءَ أَمْ أبىٰ." ا.ه[١]

٣- ضع قانونًا ومنهجًا تتفق أنت وهو عليه، وإذا لم تفعل ذلك كان الحوار مُبعثراً مُشتَّتًا، ولا تخرجان بنتيجةٍ في النهاية.

---

(١) - الموافقات: ٥/ ٤١٥.

٤- لا تُناقشه عن الأمور الفرعية، واطلب منه أنْ يُؤخر الحديث عنها بعد النقاش في الأمور الكلِّيَّة والأساسية، التي غالبًا ما تتفقان عليها.

٥- أن يكون النقاشُ بجوٍّ مليءٍ بالهدوء، ويكون الطرح والنقاش بهدوءٍ أيضًا.

واحتمل ما تسمعه من تجاوزات أو كلام سيّئ، وداره واصبر عليه.

قال الشاطبي رحمه الله تعالىٰ: "الْأَدَبُ فِي الْمُنَاظَرَةِ أَنْ لَا يُفَاجِئَ بِالرَّدِّ كِفَاحًا دُونَ التَّقَاضِي بِالْمُجَامَلَةِ وَالْمُسَامَحَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [سَبَأ: ٢٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزُّخْرُف: ٨١].

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ [هُود: ٣٥].

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٣].

﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [الْمَائِدَة: ١٠٤].

لِأَنَّ ذَلِكَ أَدْعَىٰ إِلَىٰ الْقَبُولِ وَتَرْكِ الْعِنَادِ وَإِطْفَاءِ نَارِ الْعَصَبِيَّةِ.. ا.ه[(١)]

٦- ألا يكون قصدك مجرّد إفحام خصمك، بل نصحه وهدايته، وإياك أنْ يشعر ويحسّ بأنك تتقصّد إفحامه وبيان خطئه، بل ينبغي أنْ تُوضح له أنك تقصد رحمته، وأنك مشفقٌ عليه كما هو الواقع حقيقةً.

إلا أن يكون هذا المجادل داعيةً إلىٰ بدعته، وعُرف عنه العناد والشر.

---

(١) – الموافقات: ٢/ ١٦٧.

بعضُ التوصيات والتوجيهات التي تُستفاد من نقاشي مع الملحدين والمشككين

أولًا: ينبغي علىٰ طلاب العلم والمشايخ أنْ يُبادروا إلىٰ من عنده شبهةٌ وخطأٌ في علاج ما عندهم، وألا ينتظروا مجيئهم، فمجيئهم ومبادرتهم لصاحب الشبهة والحوار معه بجوٍّ لطيفٍ: سيؤثر عليه أشدّ التأثير، وسيلمس من المشايخ الذين يكرههم أو ينتقدهم الرحمة والمحبة والقرب، وكذلك سيزول عنه من الشبه الشيء الكثير.

ولْنأخذ مثالين من سيرة إمامنا وقدوتنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

المثال الأول: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَىٰ بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَتِه، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ رأوها قليلةً، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي». متفق عليه(١)

(١) صحيح البخاري (٥٠٦٣) صحيح مسلم (١٤٠١).

تأمل: (فَجَاءَ إِلَيْهِمْ رَسُول الله صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ): فيه دليلٌ صريحٌ علىٰ اسْتحباب مجيء العالم والداعية بنفسه للنصح والتوجيه، وأنه لا ينتظر مجيء الْمُخطئين، بل يُبادر إليهم، ويوضح خطأهم، ولا يكتفي بإنكار المنكر والخطأ علانية، بل يتَّصل علىٰ من فعل ذلك، أو يذهب إليه ويُناقشه.

والمثال الثاني: قال عَبْدُ اللهِ بْن عَمْرٍو رضي الله عنهما: ذُكِرَ للنبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْمِي، فَدَخَلَ عَلَيَّ، فَأَلْقَيْتُ لَهُ وِسَادَةً مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، فَجَلَسَ عَلَىٰ الأَرْضِ، وَصَارَتِ الوِسَادَةُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ. ثم بدأ يُناقشه ويُحاوره ويُقنعه بعدوله عن رأيه. متفق عليه(١)

فما إنْ ذُكر له صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطأ عبد الله حتَّىٰ بادر إليه، وتكلَّف المجيءِ بنفسه الشريفة إلىٰ بيته، ولم يطلب من أبيه أنْ يُحضر ولده، مع أنَّ الحاجة له ولولده، فقد ورد أنه هو الذي شكا ولده بسبب تقصيره في حقّ امرأته لشغله بالعبادة.

ثانيًا: إن الكثير من أصحاب الشبهات والإلحاد -: شبهاتهم ليست معقدةً صعبة، وليست هي ممَّا يصعب حلُّها وعلاجها، ولكنهم لم يجدوا أحداً يكون قريباً منهم، ويأخذ شبهاتهم واحدةً واحدة، فيُناقشها بحكمةٍ ورويَّة.

ثالثًا: إنّ بعض من يُخالفنا قد لا يختلفون معنا في الجوهر والأصل، واعتقادنا أنَّهم يختلفون معنا اختلافاً جذرياً بسبب عدم جلوسنا مع بعض، واسْتِماعنا إلىٰ وجهات نظرهم.

---

(١) صحيح البخاري (١٩٨٠) صحيح أخرجه مسلم (١١٥٩).

وأذكر قبل مدة أنّ أحد الأقارب كان كلَّما جلسنا معه يطرح هو أو غيره بعض الأمور المشكلة، مثل حكم الصحن الفضائي، وغير ذلك، وكنا نحتدم في النقاش، وترتفع الأصوات، فنخرج من الجلسة العائلية وقلوبنا متنافرة.

فقلت لهم يومـًا ما: إلىٰ متىٰ ونحن علىٰ هذه الحال، نقاشٌ ممل، ونفرةٌ وفرقة، فدعونا نتحاور، وأنا سأرتب الحوار، سأسأل أسئلةً عما سبق طرحه من الإشكالات: هل يُخالف أحدٌ أن الصحن الفضائي الذي فيه المسلسلات الهابطة، والأفلام الخليعة: محرمة، قالوا: لا، قلت: هل يُخالف أحدٌ أنها إن كانت خاليةً منها فهي جائزة. قالوا: لا.

قلت: هذه النقطة لم نختلف عليها ونحن دائمـًا نتناقش عنها ونختلف عليها، بسبب عدمِ فهمِ بعضِنا مُرادَ بعض.

وهكذا أخذت النقاط التي كنا نختلف عليها واحدةً واحدة، بهدوءٍ وتنظيم، فخرجنا متفقين، ولم نتناقش عنها بعدها أبداً.

الخاتمة

إنّ ما ذكرتُه من قصص ونقاشات وأدلة عقلية هي رسائل بليغةٍ إلىٰ:

١- أهل الحيرة والتشكيك والإلحاد، فليعتبروا بمن سبقهم، ولا يكونوا عبرةً لغيرهم، وهي كفيلةٌ بحول الله في إزالة شبههم، والإجابة عن أسئلتهم- إن كانوا يطلبون الحق-.

٢- الدعاة إلىٰ الله والمصلحين والمثقفين، وذلك بِمُحاورة هؤلاء الملحدين والمشككين باللين واللطف، ودراسة طرق إقناعهم، وزوال شبهاتهم، وقد لا يستغرق الحوار معهم وقتًا طويلاً، فصاحبة القصة الثانية، وهي فتاةٌ عاشت عامين بين الشك والإلحاد، والعذاب والفساد، لم أُمض أكثر من ساعة ونصفٍ في حواري معها، وكانت كافيةً في هدايتها وتوبتها، وقناعتها التامة بالدين.

٣- عامة الناس، وذلك بأن يزدادوا قناعةً في دينهم وعقيدتهم، وألا يقعوا في أسباب الانتكاسة التي وقع بها هؤلاء، وأنْ يسألوا الله الثبات علىٰ الدين والعقيدة الصحيحة.

وإني علىٰ يقين جازمٍ أنّ من قرأ الكتاب بعقل مجرّد سالمٍ من الهوىٰ والكبر، ونفسٍ عازمة علىٰ قبول الحق: سيخرج بعده بروح مطْمئنّة موقنة بصوابِ دينِ الإسلام، وصحةِ القرآن وأنه كلام الرحمن، وصدقِ النبيّ محمد صلىٰ الله عليه وسلم.

وسيجد انشراحًا تامًّا بإذن الله، وستزول تلك الوساوسُ الشّيطانية، والأفكارُ الخاطئة، الجاثمةُ علىٰ النفس فأثْقلتها وأتْعبتها..

وقد تأملت في هؤلاء الملحدين والمشككين فرأيتُ أنّ شبههم ضعيفة، ووجدت سهولةً في إقناعِ الصادق منهم؛ لأنهم لا يَمْلِكون حجّةً صحيحة، ولا يملكون قناعةً راسخةً ثابتة، بل عندهم شكوكٌ وأسئلةٌ تدل علىٰ عمق القلق والحيرة التي يقذفها الشيطان في قلوبهم؛ لبعدهم من الله سبحانه وتعالىٰ.

أسأل الله تعالىٰ أن ينفع بهذا الجهد اليسير، والعمل القليل، وأنْ يُبارك فيه، ويجعله خالصًا لوجهه الكريم، إنه سميعٌ قريبٌ مُجيب.

أحمد بن ناصر الطيار
البريد الإلكتروني:
ahmed0411@gmail.com
رقم الجوال: ٩٦٦٥٠٣٤٢١٨٦٦+
١٤٤٧/١٢/٢٧هـ

صَدَرَ لِلمُؤلِف[١]

١- حَيَاةُ السَّلَفِ بَيْنَ الْقَوْلِ والْعَمَلِ. (الطبعة الخامسة).

٢- مختصَر حَيَاةِ السَّلَفِ بَيْنَ الْقَوْلِ والْعَمَلِ.)الطبعة الثانية).

٣- إرْشادُ السَّاجِدِ بأسْبابِ الخِلافِ والتَّقاطُعِ في الْمَسَاجِدِ.

٤- الإفَاضَةُ في أَحْكَامِ الْحَيْضِ والنِّفَاسِ والاسْتِحَاضَةِ.

٥- كَيْفَ تُرَبِّيْ أَولادك؟ (الطبعة الثانية).

٦- بُيُوتٌ تَئِنُّ مِنَ الْمَشاكِلِ والْخلافَاتِ، الأسْبَابُ والْعِلاَجُ.

٧- حُقُوقُ الصَّدِيْقِ وكَيْفَ تَتَعَامَلُ مَعَهُ.

٨- آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ وسُبُلُ بِنَائِه ورُسُوخِه. (الطبعة الثانية).

٩- الحياةُ الزّوجيّةُ السّعيْدَةُ، قَوَاعِدُ وَحُقُوقٌ وَعِلاجٌ لِلْمُنغّصاتِ.

١٠- صِناعَةُ مُعَبِّرٍ مَاهِرٍ.

١١- الْمَعِيْنُ الْجَارِي في اسْتنباطِ الفَوَائِدِ واللطَائِفِ مِنْ صَحِيْحِ الْبُخَارِي.

١٢- مَنْهَجُ الصَّحَابَةِ والسَّلَفِ الصَّالِحِ فِي الْتَّعَامُلِ مَعَ فَتَاوَى الْمُفْتِينِ والرَّدِّ عَلَى الْمُخْطِئِين.

---

١ - جميع الكتب من طباعة دار الحجاز سوىٰ كتابي: "حياة السلف" (دار ابن الجوزي) و"تَقْرِيبُ فَتاوَىٰ ابْنِ عُثَيْمِين رحمه الله" (دار الْمُهذّب)، و "أَمَـلٌ بَيْنَ رُكـامِ الْأَلَـمِ" و "مأدُبَةُ الرَّحْمَنِ" (دار شذرات العلم للنشر).

١٣- تَهْذِيْبُ كِتَابِ الْمُوَافَقَاتِ لِلْإِمَامِ الشَّاطِبِي، مَعَ التَّعْلِيقِ عَلَيْهِ.

١٤- مَجالسُ شَهْرِ رَمَضَانَ.

١٥- قِصَصِي مَعَ الْمُلْحِدِيْن والْمُشَكِّكِيْن والْمُوسْوِسِيْن، معَ بَيَانِ طُرُقِ إقْنَاعِهِم وَهِدايَتِهِم.

١٦- الْمَسَائِلُ الْمُهِمَّةُ فِي التَّجْوِيدِ والْأَحْرُفِ السَّبْعةِ.

١٧- عِبَاراتٌ أثَّرَتْ عَلَيَّ وَغَيَّرَتْ في حَيَاتِي. (الطبعة الثانية).

١٨- عَبْقريَّةُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ الله. (الطبعة الثانية).

١٩- بَوَّابَةُ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ. (الطبعة الثانية).

٢٠- صِنَاعَةُ طَالِبِ عِلْمٍ مَاهِرٍ. (الطبعة الثالثة).

٢١- صِنَاعَةُ خَطِيبٍ مَاهِرٍ. (الطبعة الثانية).

٢٢- الْأُنْسُ بِالله تَعَالَى. (الطبعة الثانية).

٢٣- تَقريبُ تُراثِ شَيْخِ الإسْلامِ ابْنِ تَيْمِيَّة. (الْمَجْمُوعَةُ الْأُولى).

٢٤- تَقريبُ تُراثِ شَيْخِ الإسْلامِ ابْنِ تَيْمِيَّة. (الْمَجْمُوعَةُ الثَّانِيَة).

٢٥- تَقريبُ تُراثِ شَيْخِ الإسْلامِ ابْنِ تَيْمِيَّة. (الْمَجْمُوعَةُ الثَّالِثة).

٢٦- تَقريبُ تُراثِ شَيْخِ الإسْلامِ ابْنِ تَيْمِيَّة. (الْمَجْمُوعَةُ الرَّابعَة).

٢٧- تَقريبُ تُراثِ شَيْخِ الإسْلامِ ابْنِ تَيْمِيَّة. (الْمَجْمُوعَةُ الخامِسَة).

٢٨- فنُّ التَّعَامُلِ واكْتِسَابِ الْأَخْلاقِ. (الطبعة الثانية).

٢٩- الرُّقْيَةُ الشَّرْعيَّة بين باعةِ الأوهام وأصلها الشرعيّ، قصص وعبر.

٣٠- غِذَاءُ الْعُقُولِ وَصِفَاتُ الْعُقَلاَء. (الطبعة الثانية).

٣١- نَثْرُ الْخَوَاطِرِ.

٣٢- نَثْرُ الْخَوَاطِرِ. (الجزء الثاني).

٣٣- حَدِيْقَةُ الْمُتَنَبِّي. (الطبعة الثانية).

٣٤- نصيحَتِي لك يا وَلَدِي.

٣٥- نصيحَتِي لكِ يا أُخَيَّتِي.

٣٦- فَلَذَاتُ الأَكْبادِ.

٣٧- الْمُخْتَارُ من تَفْسيرِ الْمَنَار.

٣٨- الإِنْصَافُ عِنْدَ شَيْخِ الإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيّة رَحِمَهُ الله.

٣٩- تَقْريبُ فَتاوَى ابْنِ عُثَيْمِين رحمه الله. (العبادات).

٤٠- تَقْرِيْبُ السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ.

٤١- تِجَارةُ الابْتِلاءِ.

٤٢- أَمَلٌ بَيْنَ رُكامِ الأَلَمِ.

٤٣- مأدُبَةُ الرَّحْمَنِ.

٤٤- إجَابَاتٌ مُقْنِعَةٌ عَنْ دَيْنِ الإِسْلَامِ.

الفهرس

طالبٌ مشاكسٌ عنده شبهاتٌ وشكوك..... ٩
مُلْحدةٌ عنيفة ٣١
قصةُ إلْحادِها وسببُ هدايتها تكتُبها بِقَلَمِها..... ٥٠
مُلْحدٌ عنيف..... ٥٦
تأملات في حال الملحدين والمشكّكين ٥٨
الأدلةُ العقليّة علىٰ وجود الله تعالىٰ وصدق القرآن ورسول الأنام، عليه الصلاة والسلام ...٦٠
عظمة القرآن وإعجازه وبلاغته..... ٦٤
متىٰ نجزم بصحةِ الخبر؟ ٧٦
ماذا غيّر القرآن في أهلِه، وكيف كانت حياة الناس قبله؟..... ٨٥
مقارنة بين أثر القرآن علىٰ أخلاق أهله وبين أثر أنظمة الغرب علىٰ أصحابها ٩٣
ماذا قال الْمُنصِفون عن القرآن؟..... ١٠٤
ماذا قال الحاقدون عن القرآن؟ ١١٠
الأدلّة العقليّة علىٰ إثبات نبوّةِ النبي محمد صلىٰ الله عليه وسلم ١١٤
هل نقدم أدلة الشرع أم أدلة العقل؟ ١٢٥
هل الإسلام مبنيٌّ علىٰ محض الاتباع أم هو مبنيٌّ علىٰ العقل؟ ١٢٧
العاقل يختار الطريق الذي يسلك به إلىٰ السلامة أو الغنيمة، علىٰ الطريق الذي يسلك به إلىٰ السلامة أو الهلاك ١٣٠
حجج عقليّة تزيد المؤمن إيمانًا، وتُزيل شُبَه وشكوك من شكّ في وجود الله سبحانه وتعالىٰ

أو في صدق نبوّة النبي محمد صلىٰ الله عليه وسلم أو الوحي الذي أُنزل عليه..... ١٣٢
الأدلة العقلية علىٰ القضاء والقدر ١٤٠
لا تجعل عقْلك يخوض في البحث عن ذات الله وكيفية صفاته تعالىٰ ١٤٨
نماذج من المشاهير المثقفين الذي أنهوا حياتهم بالانتحار بسبب تلوّث عقولهم وضيق صدورهم ١٥١
توجيهات هامّة ينبغي أن يعتني بها من يُحاور ويُناقش ملحدًا أو مشكّكًا في الدين ١٥٣
بعضُ التوصيات والتوجيهات التي تُستفاد من نقاشي مع الملحدين والمشككين..... ١٥٥
الخاتمة ١٥٨
صَدَرَ لِلمُؤلِف..... ١٦٠
الفهرس..... ١٦٣

يتخلّلها حواراتٌ ونقاشاتٌ دارت بيني وبين بعض الملحدين ومن عندهم شُكوك في العقيدة، انتهت بوضوحِ الحقّ لهم، وزوال جميع الشّبه عنهم، بحمد الله تعالى.